

جامعة مؤتة

عمادة الدراسات العليا

## النفط وأثره في التغيير الاجتماعي من خلال نماذج روائية

إعداد الطالبة

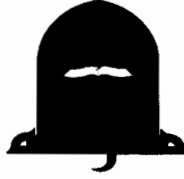
صفاء سامي الشمايلة

إشراف

الأستاذ الدكتور محمد الشوابكة

رسالة مقدمة إلى عمادة الدراسات العليا  
استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة  
الماجستير في الأدب قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة مؤتة، 2006



نموذج رقم (14)

## إجازة رسالة جامعية

تقرر إجازة الرسالة المقدمة من الطالبة صفاء سامي الشمايلة الموسومة بـ:

**النفط وأثره في التغير الاجتماعي من خلال نماذج روائية**

استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية.

القسم: اللغة العربية.

التاريخ	التوقيع	
2006/7/24		أ.د. محمد علي الشوابكة
2006/7/24		أ.د. سامح عبدالعزيز الرواشدة
2006/7/24		د. سمير بدوان قطامي
2006/7/24		د. طارق عبدالقادر المجالي

رعميد الدراسات العليا

أ.د. أحمد القطامين



## الإهداء

إلى من أوصاني الله بهما خيرا ( ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا ) إلى  
أمي وأبي

أمي التي أتعبها التعب .... وأضناها الأمل ... وتمثلت رسالتي قبل أن  
أتمثلها حدسا وتفكيراً... وتأملاً ... وتأييداً ... أهديتها هذا العمل .

أبي الذي تحمل وتأمل وأسند خطواتي كلما مالت بي الدرب ... إلى أبي  
الذي ما قصر .

أهدي عصارة جهدي لعلّي أزيل للحظة تعب الأيام وسهر الليالي .

فلهما حبي واحترامي وتقديري وعرفاني .

صفاء الشمايلة

## الشكر و التقدير

للدكتور محمد الشوابكه الذي اولانى كل رعايه واهتمام خلال كتابتي لهذه الرسالة التي كانت ثمرة وامتدادا لما درست على يديه في مرحلتي البكالوريوس والماجستير، فلم يأل جهداً في حثي حيناً ودفعي حيناً آخر للجد في البحث والاطلاع، فكان مثله مثل الأب الحاني الذي ما فتئ يراعي مصلحة أبنائه ، وإن قلّمي ليعجز عن إيجاد الكلمات المناسبة لتقديم الشكر والعرفان بالجميل ، فلا أملك إلا أن أدعو الله عز وجل أن يأخذ بيده ويسدد خطاه، فجزاه الله عنى خير الجزاء .

كما لا يسعني إلا أن أتقدم بجزيل الشكر والعرفان للأستاذ الدكتور سمير القطامي أستاذ الشعر الحديث في الجامعة الأردنية الذي تجشم عناء السفر وتفضل مشكوراً بقراءة عملي هذا ومناقشتي فيه . وأقول له : قدمت أهلاً وحللت سهلاً في جامعة مؤتة .

وللأستاذ الدكتور سامح الرواشدة عميد كلية الآداب وأستاذ الأدب الحديث في جامعتنا كل الشكر والتقدير لاطلاعه على دراستي هذه وإدلائه بالملاحظات القيمة التي سأخذ بها لا محالة . فما انفك يوليني الاهتمام والرعاية منذ دراستي الجامعية الأولى . كما لا أنسى الجهد الذي بذله الأستاذ الدكتور طارق المجالي في قراءة هذه الدراسة وإثرائها بخبرته النقدية والأدبية . فجزاه الله عنى كل خير .

وسدد الله خطى الجميع على طريق الخير .

صفاء الشمالية

## فهرس المحتويات

الصفحة	المحتوى
أ	الإهداء
ب	الشكر والتقدير
ج	فهرس المحتويات
د	الملخص باللغة العربية
هـ	الملخص باللغة الانجليزية
	الفصل الأول : الحياة العربية قبل النفط
1	1.1 المقدمة
4	1.2 الحياة العربية قبل النفط
24	الفصل الثاني : الفعل وردة الفعل
	الفصل الثالث : الاغتراب والازدواجية
54	1.3 الاغتراب
74	2.3 الازدواجية
89	الفصل الرابع : الطبقة
91	1.4 طبقة الحكام والسلاطين
96	2.4 طبقة كبار رجال الدولة
99	3.4 طبقة الوافدين
104	4.4 الطبقة العاملة المضطهدة
108	الفصل الخامس : المرأة
133	الحواشي
147	المراجع

## المخلص

النفط وأثره في التغيير الاجتماعي من خلال نماذج روائية

صفاء الشمايلة

جامعة مؤتة-2006

تهدف هذه الدراسة إلى تحليل الروايات العربية التي اهتمت بالنفط من حيث رصدها لحياة المجتمعات العربية قبل النفط ثم ما طرأ على هذه الحياة من تغيير حاد مس الجوانب المادية بشكل خاص كما لامس بعض النواحي المعنوية .

وقد جعلت الرسالة في خمس فصول وضعت الفصل الأول تحت عنوان ( المجتمع العربي قبل النفط ) وهو يتطرق إلى شكل الحياة العربية قبل النفط . وأما الفصل الثاني ( الفعل ورد الفعل ) فيحاول تحليل ردود أفعال الناس تجاه الأجنبي الذي جاء منقبا عن النفط . ويناقش الفصل الثالث ( الاغتراب والازدواجية ) آثار النفط في الحياة العربية أما الفصل الرابع وهو فصل ( الطبقة ) فهو يتحدث حول الطبقات الاجتماعية أو الشرائح الاجتماعية التي افرزها الغنى . أما الفصل الأخير فيتحدث عن المرأة النفط على حياتها .

وقد اتكأت على منهج وصفي تحليلي ينطلق من النص الروائي ، مع الاعتماد على بعض الدراسات من علمي الاجتماع والنفس الاجتماعي .

تعرض الروايات التي تناولتها وبأساليب مختلفة حياة المجتمع العربي قبل النفط وبعده

تناقش هذه الرسالة من خلال فصولها الخمسة مدى الهوية التي أوجدها النفط وملاحظة ما الذي تغير على البشر بعد ظهور النفط . التغيير حاصل والاختلاف موجود .تغير في الشكل وتغير في الهيئة وتغير في النفسية ، لكن هل تغير العقل ؟ هل تغير التفكير ؟ هذا ما تطرحه فصول هذه الرواية التي انقسمت إلى فصول تحدثت عما كان قبل النفط وأخرى عن فترة ظهور النفط وثالثة عما ترتب على ظهور النفط.

**Abstract**  
**Oil and its effect in social change through types of novels**  
**Safa shamayleh**  
**Mu'tah university, 2006**

This study tries to analyze some selective Arabic novels that deal with oil issue. These novels uncover that oil affects the Arabic life from some aspects, but it does not leave a concrete impact on the Arabic way of thinking. These traditional ideas, thoughts and values remain as they were. The novels under consideration raise such several questions as does oil change the social structure in the Arabic societies ?

What are the positive results that oil leave on the Arab societies ? Are there any differences between life before the discovery of the "oil" and the life which came after ? To what extent does the oil affect the psychological status of the individuals in the Arab world ? can we consider that alienation classes and double standard , as results of oil discovery ?

This study discusses these questions and this study relating to woman situation on the other hand this study uses descriptive and analytical approach together with employing sociology and social psychology.

## الفصل الأول

### الحياة العربية قبل النفط

#### 1.1 مقدمة:

فقد احتل النفط أهمية بارزة على المستويين العالمي والعربي؛ لما فيه من فائدة كبيرة في تسيير عجلة الحياة المعاصرة. وقد ترك النفط، ولا يزال، بصمات بيّنة في الحياة العربية المعاصرة لما جلبه من منافع مادية لا يمكن إنكارها. لقد دأبت الرواية العربية منذ تأصلها ونضجها على التعبير عن الآفاق الاجتماعية والسياسية والاقتصادية؛ فعبرت عن هموم الأمة، وآمالها وطموحاتها، وكشفت عن البنى الاجتماعية، وعرت كثيرا من مظاهر الحياة، فأعدت بذلك صياغة الواقع، وعرضت لمسائل متعددة كالطبقات الاجتماعية والصراعات الحضارية والريف والمدينة ووضع المرأة... الخ. بيد أن النفط لم يحظ بالاهتمام الذي يستحق مقارنة بالآثار التي يتركها؛ إذ لم يلتفت إليه إلا قلة من المبدعين العرب: ولعل من أقدم الروايات العربية التي جعلت النفط محورا لها "شمروخ" لمحمود تيمور، ثم تلتها بعض الأعمال مثل "السقوط إلى أعلى" وهي جزء من ثلاثية الروائي السوري وليد حجار الموسومة بـ "ثلاثية البحث عن الأنا"، وهي تتألف بالإضافة "السقوط..." من "رحلة النيلوفر" و"مسافر بلا حقائب"، والحقيقة أن هذين الجزأين لم يتعرّضا لمسألة النفط. ثم ظهرت بعد ذلك "مدن الملح" في فترات متباعدة نسيها، وتلا ذلك "قدح من نפט" لمحمد سلام جميعان، "ورسمت خطأ في الرمال" لهاني الراهب. وثمة بعض الروايات العربية التي احتفلت بالصحراء كـ "نجران تحت الصفر" ليحيى يخلف، "ورجال في الشمس" لغسان كفاني وبراري الحمى لإبراهيم نصر الله... غير أن النفط لم يشكّل همّا لكتاب هذه الروايات.

وقد لاحظت أن النفط، بوصفه موضوعا روائيا، لم يجد الاهتمام الذي يستحق من الباحثين والنقاد، وليس هنالك، في حدود ما أعلم، إلا دراسة واحدة للدكتور محمد الشوابكة بعنوان "النفط والتحول الاجتماعي في رواية" مدن الملح" لعبد الرحمن منيف،



نشرت في مجلة دراسات (الجامعة الأردنية)، وقد تناول فيها الدكتور الشوابكة الآثار المترتبة على تدفق النفط كالأزدواجية والاعتراب والطبقية. ولكن هذه الدراسة لم تشر إلى سائر الأعمال التي جعلت من النفط محورا رئيسا لها. ومن هنا تأتي هذه الدراسة مكملة لجهد أستاذي الذي أفدت منه أيما إفادة من حيث المنهج والمراجع ومفردات الدراسة.

تهدف هذه الدراسة إلى تحليل الروايات العربية التي اهتمت بالنفط من حيث رصدها لحياة المجتمعات العربية قبل النفط، ثم ما طرأ على هذه الحياة من تغير حادّ مسّ الجوانب المادية بشكل خاص، كما لامس بعض النواحي المعنوية، فحاولت أن أرصد بعض الآثار المترتبة على ظهور النفط – كما عبّر عنها من منظور فنيّ: فتحدّثت عن الآثار العامّة الاجتماعية والنفسية كمسائل الاعتراب والأزدواجية وظهور الطبقات، وأفردت فصلا قصيرا لوضع المرأة العربية في ظل هذه الأوضاع الجديدة. وقد حاولت قبل ذلك أن أحلل بدايات اكتشاف النفط وردة فعل الإنسان العربي للوجود الأجنبي. وقد عمدت إلى الحديث عن ذلك من منظور روائي، ولم احتفل كثيرا بالوثيقة التاريخية إلا بالقدر الذي يخدم أهداف دراستي. كما أنني لم أتعرّض للمسائل الفنية إلا إذا اقتضت الضرورة ذلك؛ وذلك لأن بعض هذه الروايات دُرِس من حيث التقنيات السردية، وزيادة على ذلك فإنّ موضوع هذه الدراسة يدفعني إلى الالتزام بمناقشة مسائل المضمون والأفكار حسب. وقد واجهتني بعض صعوبات تتمثل في قلة الدراسات في هذا الموضوع؛ لأن الباحثين تناولوا بعض هذه الأعمال من زوايا التشكيل الفني والملاحم الملحمية وبناء الزمن والمكان والشخصية، ولذلك عمدت إلى النصوص ذاتها محاولة استنطاقها على وفق قدرتي وقراءتي للدراسات التي احتفلت بالمضامين الروائية.

وقد اتكأت على منهج وصفي تحليلي ينطلق من النص الروائي ذاته، وإذا وجدت ما يدعم بعض الأفكار فإنني أفيد منه وإن كان في سياقات مختلفة، كإفادتي من بعض

الدراسات التي عُتبت بالاغتراب والتي عولت على علمي الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي.

وقد جعلت هذه الدراسة في خمسة فصول: تطرقت في الفصل الأول (المجتمع العربي قبل النفط) إلى شكل الحياة العربية قبل النفط من النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية؛ كيف كان يعيش الناس؟ ما شكل منظومة القيم والعادات؟ ما القواعد التي تتحكم في سلوك الناس؟

أما الفصل الثاني (الفعل وردة الفعل) فيحاول تحليل ردود أفعال الناس تجاه الأجنبي الذي جاء منقياً عن النفط، كيف نظر الناس للآخر؟ ما الاتجاهات العامة لهم، هل قبلوا الآخر أم رفضوه؟ هل كانت ردود الأفعال المعارضة سلمية أم اتخذت شكل المقاومة المسلحة؟. ويناقش الفصل الثالث (الاغتراب والازدواجية) آثار النفط في الحياة العربية: تغيّر البنى التحتية وتأثير ذلك في القيم والعادات، ما الذي أصاب الحياة من تطور مادي؟ وهل انصرف هذا التطور إلى العقلية العربية؟ لماذا سقط كثير من الشخصيات في حبال الاغتراب؟ كيف يستطيع الإنسان الجمع بين القيم العلمية والمفردات التكنولوجية من جهة، والقيم المعنوية والمخلفات القديمة من جهة أخرى. وتمثل الطبقة إحدى النتائج البارزة التي ترنتت على ظهور الثروة النفطية، وهي المسألة التي يناقشها الفصل الرابع، حيث يتمحور السؤال حول الطبقات الاجتماعية أو الشرائح الاجتماعية التي أفرزها الغنى، ومدى الوعي الطبقي عند الناس. وقد أفردت الفصل الخامس للحديث عن المرأة: كيف كان وضعها قبل النفط، وكيف أصبح وضعها بعده؟ ما مدى مساهمتها في الحياة العامة؟ هل تشارك في صياغة الحياة الجديدة أم أنها ما زالت تعيش في عصر الحريم؟

وبعد،

فقد حاولت أن أمتحن النصوص الروائية بقراءة أظنها متأنية لمناقشة المفردات التي ذكرتها، فإن وفقت فهذا فضل من الله، عز وجل، وإن قصرتُ فعذري في تقصيري أنني بذلت غاية الجهد.

## الحياة العربية قبل النفط

إذا ما نحينا النصوص موضوع البحث جانباً - إلى حين - فإن القارئ يستطيع أن يكون بسهولة متناهية صورة عن حياة المجتمع العربي قبل تفجّر الثروة النفطية. ففي الصحاري الفسيحة الممتدة لا تعثر إلا على كثبان رملية متحركة تزيد من معاناة الإنسان فضلاً عن حرارة الشمس الملتهبة التي تكوي الأجساد. بيد أن هذا الأمر ليس مطلقاً ينصرف إلى أرض النفط كلها. فثمة واحات مبعثرة في أنحاء الصحراء، ولا سيما الجزيرة العربية، وقد أثرت هذه البيئة على الإنسان من الناحية الجسدية والنفسية وأسهمت في تشكيل قيم وعادات ومسالك خاصة بإنسان الصحراء. وزيادة على ذلك حددت مسيرة الحياة الاقتصادية والسياسية في هذه البقاع الشاسعة.

ولا يخفى على القارئ أن التفكير القبلي كان هو المسيطر، فالترحال المستمر وحاجة الإنسان إلى أخيه الإنسان أوجد - كما هو معروف - قيم الكرم والتكافل وحماية الجار والغيرة على المرأة والفروسية... إلى غير ذلك. فمن الناحية الاقتصادية كانت الحياة تعتمد على الرعي وتربية الماشية حيث يعيش الناس على مشتقات ما تنتجه هذه الحيوانات، وزيادة على ذلك كانت هناك واحات من النخل الذي يسهم في تأمين المواد الغذائية الضرورية، ولكن ذلك كله لم يكن ليكفي. فكان الناس يرحلون إلى الدول المجاورة واستيراد المواد الغذائية والملابس منها. أما من الناحية السياسية فيمكن القول بإيجاز شديد أن النظام السياسي نظام قبلي يتحكم شيخ القبيلة بأمور القبيلة، ويكلف أتباعه تحمل بعض المسؤوليات. وبالتأكيد تفتقر مثل هذه الأنظمة إلى المؤسسات السياسية مما انعكس على البنى الثقافية، فكان بناء المدارس والتعليم وطلب العلم والقراءة واقتناء الكتب - أمورا استثنائية... كيف كان الناس يعيشون قبل سيلان الذهب الأسود وما الذي جعل البدو حضراً؟

لقد كان المركب جماً أو حماراً وسوق الحلال بؤرة التجمع. هل معنى البداوة قبل النفط يختلف عنه بعد النفط؟ هل البدوي الأول هو نفسه البدوي النفطية؟ ومن هنا

سأجعل الكلام مقتصرًا على حياة ما قبل النفط في تلك المجتمعات البدوية من منظور روائي، ومهما يكن فإنّ بعض الدارسين يرون أن "البدوة تعني الاكتفاء بالضروري من أسباب المعاش لأن حياتها تقوم على الترحال وعدم الاستقرار وترتب على ذلك أن سكن البدوي العربي الخيام واتخذ من الحيوان الإبل والخيول والغنم والضأن - عونًا له وذلك لقدرة هذه الأنعام على الرحلة معه في بيئته الصحراوية" (1).

لا تختلف حياة البدوة في طبيعتها باختلاف الأماكن وإن ظهرت بعض الاختلافات فهي اختلافات سطحية تفرضها طبيعة المنطقة، أما البدوة فهي واحدة في كل مكان. "حتى البدو

الذين استقروا وتحضروا فإنهم لم يتخلوا عن بدواتهم كانت الإبل في ساحات الدور وعند أبوابها وكانت الخيام إلى جانب الغرف الطينية والحطب يتجمع في جانب من الساحات الكبيرة والتي حفرت فيها المواقد، وظهر تغير بعيد في الجانب الآخر من الساحات والمطابخ. أما تلك الأطراف المائلة في جوانب البيوت فقد أعدت لذبح الخراف، ولذلك تظهر آثار الدماء اليابسة والتي تحولت إلى اللون البني المقشور" (2).

وعند الحديث عن شكل المجتمع الروائي قبل النفط، يمكن توصيف الموضوع ضمن ثلاثة محاور: الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، وسأبدأ بالوضع الاقتصادي: لقد تركز الاقتصاد قبل النفط على ثلاثة عناصر وهي: الرعي والزراعة والتجارة.

كان المجتمع قبل النفط مجتمعًا بدويًا قليًا وكانت هذه القبائل تعيش حياة بسيطة؛ تسكن بيوت الشعر، وثروتها الوحيدة الإبل والأغنام وطعامها التمر واللبن على مدار السنة (3).

تعرض بعض الروايات وبأساليب مقتضبة موجزة حياة المجتمع العربي قبل النفط وتعول على الحذف في كثير من الأحيان بيد أن القارئ يستطيع من خلال لجوء بعض الروايات إلى تقديم شخصيات عاشت الفترتين أن يسجل بعض ملامح المجتمع العربي قبل اكتشاف النفط.

تشير رواية " السقوط إلى أعلى " إلى وضع المجتمع العربي قبل اكتشاف النفط من خلال المقارنة بين الماضي والحاضر، وتقع هذه الرواية في أربعمئة وتسع وثلاثين صفحة لجأ الكاتب فيها إلى طريقة تذكر بأسلوب كتابة المسرحية؛ إذ قسمها إلى ستة أقسام ووضع في كل قسم فصولا تتفاوت من حيث العدد والطول، ولعل هذا التقسيم تطلبته طبيعة الرواية التي اتسعت فيها الرقعة الجغرافية التي تنقلت فيها شخصياتها كثيرا لتشمل مناطق تمت تسميتها: كفرنسا وإيطاليا وإسبانيا وإنجلترا وسويسرا وسوريا ولبنان ومصر، ومناطق أخرى ذكرت دون تسمية واضحة، الصحراء، البر، الشرق، " المزيد من الشرق "... الخ.

وننطلق من الإشارة الأولى في الرواية إلى اكتشاف النفط في رسالة فراس إلى صديقه الفرنسي " راوي القصة:

" في وسط الصحراء... في وسط ألوف السنين من صمت عميق يؤنسه خرير جدول آمن في واحة وديعة وارفة، تمخض الجهل عن شيطان نبش في الأرض ثروة فأقام الدنيا و أقعدها، لطحها من عرقه قذارة، ومن دمه عارا، ومن زبده فسقا وكذبا ومجوناً" (4).

تلخص لنا هذه الفقرة وبشكل مكثف المعنى الذي نريده؛ فالصحراء كانت قبل النفط تاريخاً هادئاً يمتد آلاف السنين، وثمة صمت وأمن ووداعة وخرير: " ساحرة بكر"، ثم يأتي ما يكشف عما يتسم به إنسان هذه الأرض. أقصد الإنسان الجديد، يأتي النفط فيقلب حياة الإنسان رأساً على عقب، يغير السلوك الأدمي البكر البريء إلى سلوك كاذب فاسق ماجن، كما سنرى في آثار النفط - ويغير المكان فيكون النفط قذارة لوثت طهارة الصحراء.

البدانة والبدائية - كما يشي النص - تهيمنان على الحياة فالناس يعيشون بسطاء تكفيهم ما تنتجه الأرض والماشية، ولم يقتصر هذا الأمر على المحكومين - إذ غالباً ما يوجد شيوخ وحكام -... وإنما شمل السلاطين، وتحدثنا الرواية عن حياة " هلال " هذا الأمير الصحراوي مازجة كالعادة بين الماضي والحاضر:

"ولد بين جدران قلعة كبيرة من طين - شب على الرمال بين قوم سعيد منهم من لبس حذاء - حتى إذا أغدقت الطبيعة من ثروتها على والده الشيء الهائل، ناب أمه وهي المحظية الأولى لدى السلطان من الثراء الشيء الكثير" (5).

إذن بيت الأمير من طين، ولا يجد حذاء يلبسه، يلعب على الرمال؛ لأنها تسليته الوحيدة، ولدى أبيه من المحظيات الكثير. هذا شكل من أشكال الحياة العربية قبل النفط ترصده لنا الرواية. وفي مقطع آخر يتحدث فراس عن حياة الناس ولا سيما الحكام بعد اكتشاف النفط، ولكنه يشير إلى الماضي القريب، الماضي الذي يُعري الحاضر، ويكشف عن مدى الطفرة التي حولت المضارب الكبيرة والتخلف والعبودية إلى قصور تمارس فيها القيم نفسها:

قلعة من طين ولد فيها حكام أمة بأسرها أبناء أربع زوجات ومائة وثمانين أمة... مات السلطان - أفلت أولاده وبناته من هذه القلعة يعيشون في الأرض فساداً... واليوم وعلى بضعة أميال من هذه القلعة يقف مسكن آخر، قصر... وكما يحيط الذباب بالجثة المتفسخة، تحيط بهذا القصر قصور أقل منه شأنًا وأقل مالاً ونساءً وعبيداً (6).

تتبنى " قدح من نפט " أسلوب البناء المتداخل؛ إذ تفتح الرواية بجملة على لسان السارد المشارك، تشي هذه الجملة بمعاناة الشخصية وتيهها، ويجد المتلقي نفسه في قلب الحدث القصصي وأمام شخصية يجهل ماضيها إذ يستغني الروائي عن الاستهلال السردي المطول الذي سنراه جلياً في " مدن الملح "، كما نراه في الرواية الواقعية التي يميل مؤلفوها إلى تقديم الخلفيات المكانية والأبعاد الجسدية والنفسية للشخصيات وعناصر الزمان والمكان وطبيعة الأحداث. إن جميعان يحاول تجنب رتابة الأحداث ويدخل متلقيه في عالمه القصصي مباشرة، يفتح النص بـ " شيء واحد يفصل بين السكين وعنقي (7) "، ما الذي يحدث وما الذي أوصل الشخصية إلى هذه النقطة الحرجة؟ إن مضمون الرواية بشكل عام يتحدث عن المجتمع النفطي وتأثيره في الحياة العربية، ويشير إلى وضع الوافدين في هذا المجتمع، وجملة الاستهلال تضع القارئ أمام مجموعة من التساؤلات وتدفعه دفعا إلى متابعة القراءة. وإذا كانت الرواية تحاول

أن ترصد آثار النفط في سلوك الأفراد وحياة الناس فإنها لا تنسى ان تلمح من خلال المقارنة إلى الحياة العربية قبل النفط. فظافر الأحمد بطل الرواية يلاحظ همجية البداوة ويشير إلى أن حياة الناس كانت تعتمد على الرعي وزراعة النخيل؛ شاهد وهو يعبر الحدود مع زوجته مجموعة من الرعاة الذين يعبرون بماشيتهم بحثاً عن مراعي جديدة، كان أصغرهم قابضاً على تميرات " (8).

ويكابد الناس مشقة الحياة وصعوبة تأمين احتياجاتهم اليومية بوسائل بدائية " قال عبدو الذي ما طفق يحدث ظافر الاحمد " بطل الرواية " عن آبار القرية المهترئة الأطراف من طول استعمال الحبال - لقد أضحكه عبدو حتى أغمض عينيه وهو يحدثه عن الحمار الذي وقع في البئر وكيف أن أحد الرجال تطوع لآخراجه " (9)، فلا مياه تجلب بواسطة المواسير ولا محطات لتحلية مياه البحر وإنما آبار مهترئة وحمار تجلب بوساطته المياه.

وتخلو حياة المجتمع من الرفاهية فلا يوجد أجهزة تكييف في أي مكان يذهب إليه السارد والبطل، ووسيلة الإضاءة الوحيدة لديه " السراج " فلما رجع إلى فراشه على ضوء السراج الذابل كانت عيناه تفوران في وجه معروق أصفر (10).

ولعل خماسية منيف " مدن الملح " تعد الأضخم بين هذه الأعمال الروائية لتأنيها في رصد الحياة العربية قبل النفط، فكان الناس يفتاتون بالإضافة إلى التمر الجاف واللبن على الخبز القاسي؛ لذا ترى أحيانا على وجوه هؤلاء البدو علائم السخط أحيانا بالإضافة إلى ما يصيبهم من حالات عصبية نتيجة للآلام التي تعترض في أمعائهم من هذا الطعام اليومي (11).

نستطيع القول إن هؤلاء البدو لم يكونوا يهتموا بما يتجاوز حدود قوت يومهم، وإن تجاوزوا ذلك فالأمر ينحصر بتأمين الطعام والشراب والملبس وحتى تأمين هذه الأمور لم يكن عن طريق تعامل مالي ونقدي بل على الأغلب تؤمن بطريقة المقايضة ولكن ذلك لا يلغي دور العملة المعدنية في التجارة.

أما مهنة الرعي فتعد مهنة من المهن التي كان لها أهمية بارزة بالنسبة لاقتصاد المجتمع الروائي قبل اكتشاف النفط، إن أكثرية سكان ذلك المجتمع يفتنون الإبل وقد تمثل الرعي في تربية الجمال والماشية وغيرها (12).

من النادر أن نجد في الصحراء شخصاً لا يملك خيلاً أو جملاً كحد أدنى للامتلاك فقد كانت هذه المخلوقات مصدر فخر واعتزاز لكل بدوي وكلما زاد عدد ما يملك من أنعام زادت قيمته بين قومه ومجتمعه وهم لشدة فخرهم بهذه الحيوانات لا يتركونها بدون أسماء بل يطلقون عليها أسماء معينة تعرف تلك الحيوانات فيها عند صاحبها ومن حوله من البشر ولم يكن أي شخص يستطيع القيام بعملية الرعي؛ فلم يكن ذلك العمل سهلاً يسيراً بل إنه عمل لا يستطيع شخص بمفرده القيام به فهو لا يقتصر على السير مع الحيوانات والرعي بها بل هو عملية تتطلب القوة والمهارة في نفس الوقت، وكلما كبر حجم الحيوان ازدادت عملية الرعي صعوبة، فرعي الماعز أسهل من رعي الإبل وبالتأكيد كلما زاد العدد زادت العملية صعوبة، "ومعنى أن يأخذ فتى في عمره عدداً من الدواب بمفرده أن يكون قوياً ومهماً لأن وقت الغروب في وادي العيون حيث تأتي الدواب لتستقي من أصعب الأوقات وأكثرها مشقة وخطورة" (13)، إن عملية السيطرة على هذه الحيوانات أثناء عملية السفاية ليست بالأمر الهين "فهى قضية لا يقوى عليها إلا الرجال أو الفتيان الأقوياء" (14)؛ ومن هنا نجد أن عملية الرعي لم تكن عملية سهلة ولم تكن عملية هامشية بل هي عملية مهمة وهذا الاهتمام بالرعي لم يأت من فراغ؛ فهؤلاء البدو يعتمدون عليه بشكل كبير لما تعود به الأنعام عليهم من فوائد جمة أهمها أنها تعد مصدر رزق لهم فاعتماد البدو على ما تنتجه هذه الحيوانات اعتماد كبير.

وإذا ما انتقلنا إلى الزراعة فإن الأمر يختلف إلى حد كبير؛ فالظروف القاسية أثرت في الحياة الزراعية وامتداد سنين الجفاف وضيق الرقعة الزراعية، وقلة موارد الرزق ومعاناة شظف العيش أثرت على قلة الموارد الزراعية (15). ورغم هذه الظروف القاسية فإن منيفاً استطاع بمهارة لغوية شعرية أن يحسن الصحراء ويضفي





" بسطة واسعة من الأرض مستوية، قاسية وفي جانب آبار المياه ، وفي جانب آخر حضائر للماشية والدواب وهي حضائر بسيطة أو بالأحرى لا تتعدى المربعات أو المستطيلات من الأرض المسورة بسلاسل من الحجارة الصغيرة بارتفاع نصف القامة. وغالبا ما تَوجر لقاء مبالغ زهيدة" (19).

في هذا السوق تقوم تجارة الحلال، وهي تجارة ذات أثر كبير في حياة هؤلاء الأفراد، ولكنها مرتبطة بما تجود به السماء، وهذه المسألة، وجعلت من بعض الذين "كانوا فقراء لا يملكون إلا كيسا أو كيسين من التبن أو سطلا من قطران لمداواة الإبل ... أغنياء يمتلكون الماشية والإبل للتجارة وبالعكس، تجار أغنياء يمتلكون الرزق الوفير تحولوا الى فقراء بسبب خسارة في مواشيهم في أحد سنين المحل" (20).

أما التجارة الأخرى فانقسمت إلى قسمين إما:

1- تجارة داخلية بين أفراد المجتمع البدوي الواحد. فكانت تقام لها بضع دكاكين وقد بنيت بشكل بدائي وبسرعة متناهية وهي عبارة عن غرف صغيرة دون نوافذ، وتكون هذه الدكاكين عامرة مليئة بالبشر والأشياء ويختلط فيها الباعة والمشترون (21).

2- أما التجارة الأخرى فهي التجارة الخارجية - تجارة القوافل - هذه القوافل المنتقلة من منطقة إلى أخرى ومن بلد إلى آخر. فوادي العيون مثلا محطة مهمة لتلك القوافل، فعندما يستقر الناس في الوادي كانت تلك فرصة واضحة لتميز كل قافلة عن غيرها من القوافل " ماذا تحمل هذه القوافل، وكم تحمل، هذا زيادة على معرفة الأسعار وأصحاب الأحمال وغير ذلك من المعلومات؟" (22).

كانت التجارة أحد أهم المرتكزات التي تقوم عليها معيشة البدو قبل أن يظهر ذلك النفط الأسود ولو أنه استمر بعد ذلك بطرق مختلفة وعلى صعيد أوسع، لكنه في ذلك الوقت كان من أهم أبواب الرزق حيث تنتقل القافلة من مكان إلى مكان تشتري وتبيع في كل منطقة تنزل بها، وتحل عند سكانها وتزداد عملية التجارة إغراء إذا ما اجتمعت أكثر من قافلة في مكان معين، فوادي العيون باعتباره محطة لنزول القوافل

واستراحتها قد تجتمع فيه أكثر من قافلة " خاصة إذا التقى رجال قافلتين، وبدأت تلك المفاوضات القاسية الطويلة والتي يتخللها الكثير من مظاهر عدم الرغبة في الشراء و الاختلاف الكبير فيما يعرضه البائعون وما يطلبه المشترون " (23)، لكل أسلوبه ولكل طريقته في البيع والشراء لكن النتيجة هي الرزق والمال.

وتشير رواية " قدح من النفط " إلى مصدر آخر من مصادر التجارة؛ إذ كان اعتماد أهل الخليج على الصيد البحري واستخراج اللؤلؤ كبيراً مما يتطلب ركوب البحر والغياب الطويل وخطورة الغوص في الأعماق فهذه الجزر خالية من الأدميين يستريح إليها صيادو الأسماك والبحارة في غيباتهم الطويلة والتي تمتد اشهرًا... (24).

وإذا ما انتقلنا إلى البعد السياسي فسرى أن البداوة وأحياناً البدائية موجّهة للبنية السياسية، إذ يستند الحكم إلى التركيبة القبلية التي تعني في الغالب تسلط الفرد وتمركز النفوذ في يده أو من يخولهم بذلك من أولاده وأقاربه. وبإيجاز شديد تشير معظم الروايات إلى مركزية الحكم بيد شيخ القبيلة الذي أصبح يسمى أميراً ثم سلطاناً، ولأن القبائل متعددة ومتنافسة فقد كثر الأمراء ونشبت بينهم الحروب الدامية مع ما رافق ذلك من قيم التآمر والغدر والاستعانة بالأقوياء ولا سيما الأجانب... ومن هنا تأتي التبعية المطلقة التي لا تلتفت إلى مصالح الناس ولا إلى ما يمر به العالم من تقدم علمي نهض بأمره إلى قمم الازدهار الاقتصادي والاجتماعي وشيوع القيم العلمية والعقلانية.

يختزل هاني الراهب في " رسمت خطأ في الرمال " التاريخ الذي عاشته الصحراء العربية المكان والزمان والإنسان، فيبدو العربي خاضعاً للآخر فتكون مسالكه وأفعاله ردود أفعال سلبية. يغوص الراهب في أعماق التاريخ متخذاً من أبي الفتح الإسكندري راوياً للأحداث ليكشف لنا عن خيبة العربي الذي حمل تراثه ولكنه تجمد عند لحظة من الزمن، وليس هذا وحسب إنما عاد إلى ماضٍ بعيد يبدو مسكوناً به، ماضٍ يتوافق — كما يرى الكاتب — مع طبيعة العربي القبلية ونزعتة إلى التفكك فترك الرسالة وراح يهيم في غير إله. نقرأ في فصل يحمل عنوان "أبو الفتح الإسكندري يبحث عن عمر بن الخطاب":

أفق أبلق. أرض تركض، وعين تستجير من التمر لسومر. لأشور دفع غرامة السلامة. وانكفاً ليعبد بعلا سماه هبلا. أشواقه تنتزى عشقا للات والعزى. خلاياه مصنوعة من الرمال ووبر الجمال. كذلك بيته وبخته وتخته. تعلم من البعير الصبر، ومن الصحراء الغدر، أقام بختنصر إمبراطورية الجغرافيا فأقام هو إمبراطورية اللغة، صوحت أشجار جزيرته وظل هو غضا؛ غارت في باطن النجاد وغار هو في حرف الضاد، صار التراب رمالاً وصار هو حروفاً. بعد آلاف السنين صارت الأشجار بحار النفط، وصارت الحروف لغة القرآن، وعندما اكتملت لديه عشرة ملايين كلمة حضر إلى التاريخ حاملاً كتابه بيمينه ذلك هو العربي (25).

وفي الوقت الذي بدأت فيه أوروبا تجتاح المجهول بالعقل في القرون الحديثة ولا سيما القرن الثامن عشر، كما يصرح النص، كان العربي يعيش في متاهات التخلف ينتظر عودة الحرية التي بشر بها عمر بن الخطاب. وفي حين كان الإنجليز يستخدمون المنظار والسفن والعدسات "كان الأعرابي يريد أن يصبح خليفة وكان الإنجليز يحبون الخلفاء" (26). والرواية مليئة بالشواهد التي قدمت بطريقة تقريرية والتي تشير إلى أن العربي خاضع للآخر مستلب الإرادة لا يملك من أمره شيئاً، وعلى الرغم من أنه صاحب الأرض، فإن الآخر هو الذي يرسم الحدود ويقيم المشيخات، مفتتاً الأرض العربية:

كان الخلفاء قد اختلفوا على الحدود لكن الميجر "فكس" وبخهم في يوم مشهود. امتشق قلماً وفتق ورقة، رسم خطأ من البحر إلى الصحراء فألى الصحراء فألى البحر. قال لتكن هذه نفيطية سين فكانت. وقال لتكن هذه نفيطية جيم فكانت. قال: لتكن النفيطيات فكانت. ذلك هو الميجر "فكس" صانع الدول (27).

وفيما يشبه الاسترجاع يقدم السارد خلفية تاريخية لمفتش الجمارك الذي يعد من ممثلي السلطة، وتتصرف هذه الخلفية بالضرورة إلى المجتمع العربي قبل اكتشاف النفط، وتؤكد هذه الخلفية مظاهر البدائية والتخلف والقمع وانتهاك حقوق الإنسان "مفتش الجمارك حارس المكس أمضى قروناً وهو يفترش الرمال يمشي على الرمال

يأكل ويقتل ويضاجع ويبول...على الرمال فوقه السماء الرمادية وجحافل النجوم وجحافل الغبار..." (28)، ثم يمضي مشيراً إلى أن هذا الأعرابي أصبح في ذات ضحى رباً للحدود تخدمه جحافل الناس في أقاصي المعمورة، ويمتصّ الراهب التاريخ الطويل ليعري البنى السياسية ويخلق نوعاً من الاتحاد بين قنلة ابن الزبير ومحمد بن أبي بكر والحسين بن علي - وبين سلاطين الحاضر؛ حيث يمتزج الإنعام والإفساد، والعتاء وسفك الدماء:

" أفق أبلق أرض تركض وعينه تستجير من الهجير، أشواقه تنتزى عشقاً لللات والعزة خلاياه مصنوعة من الرمال ووبر الجمال حضر إلى القرن العشرين شاهراً سيف أستاذه... الصحراء تبتلع الدماء منذ مصرع عمر يغور فيها ذلك الذهب الأحمر، كل بطون الأعراب وأفخاذها سالت دماؤها وبقيت الصحراء صفراء، الدم يعني الخلافة، ومنذ أول فجر لم تقم دولة في هذه الديار إلا على القهر، ذلكم هو الخليفة (29).

وتحل رواية "مدن الملح" بجزء كامل " تقاسيم الليل والنهار" البناء السياسي في المجتمع العربي فتطالعنا بقول السارد: " في ذلك الزمن كل شيء مطروح لاعادة النظر لاعادة القسمة، الأفكار، المناطق، الدول، حتى الملوك والسلاطين والأمراء الصغار " (30)، هكذا هي الحياة السياسية في المنطقة العربية في المجتمع الروائي قبل ظهور النفط. هل هي آمنة ومستقرة بالمعنى الفعلي للأمن خصوصاً عند من يملكون السلطة؟ وهو موضوع الحديث: السلطة والحكم كيف كان وما شكله؟ وما هو وضع الحكام والأمراء في تلك البلاد؟ ومن المتحكم بالسياسة والرئاسة، هل كان هنالك وجود لقوى خارجية تتحكم بهذه البلاد؟

إن العبارة التي بدأنا بها الحديث تعطينا لمحة موجزة عن ذلك الوضع. لا يوجد شيء مستقر وفي أي لحظة ممكن أن يتغير أي شيء وكل شيء، "دولة تنهض فجأة وأخرى تغيب " (31).

في ذلك الزمان لم يكن هناك قانون يحكم قيام الدول فكل من يرى في نفسه القدرة أن يبني دولة يعمل على ذلك مباشرة، دون سابق إنذار ودون حساب لأي جهة أخرى من الممكن أن تؤثر سلباً على قيام تلك الدولة. في ظل هذا الوضع ليس أسهل من أن تغيب دولة عن الوجود وتختفي دون أن يحس باختفائها أحد. وما هذا إلا لكثرة تلك الدول وتبعثرها هنا وهناك وهي مع كثرتها سريعة الزوال كسرعة بنائها.

إن هذا الوضع المتهلل لتلك الدول ليس إلا نتيجة لتحكم فئة معينة بالسلطة - فئة الأقوياء- الذين يتخذون القرارات فهم وحدهم الذين يقررون بناء تلك الدولة أو نفس تلك الدول تبعاً لمصالحهم وقدرتهم على المساومة.

لم يكن أسهل من أن يخترع أمير لتلك المنطقة أو يحكم على ذلك الأمير بالنفي أو الموت، فقط لأن شخصاً أقوى منه ظهر على الساحة فحق له إلقاء الأوامر ونقض العهود والوعود إذا رأى في ذلك مصلحته.

ونستطيع أن نزيد الأمور توضيحاً إذا ما أخذنا مثلاً على الوضع السياسي في منطقة ما. ومثالنا هنا هو " موران " تلك الصحراء الغارقة في الرمال والنسيان" كما يقول منيف. موران هي أكبر مثال على الوضع السياسي المتهلل في تلك البلاد فيكفي أن نقول إن عدد أمرائها مائة أمير. إنه عدد ضخم بالنسبة لصحراء وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على عظم حجم التنازع بين هؤلاء الأمراء حتى أصبحوا بهذا العدد فكان أمراؤها المائة يتنازعون أجزاءها كما تتنازع النسور(32). النسور هي الأشد شراسة بين الجوارح وتنازع الأمراء هو الأشد ضرواً في الصحراء القاسية فنزاعهم يزيد إلى قساوة الصحراء قساوة أخرى.

لم يكن هؤلاء الأمراء متساوين في حجم دولهم فدولهم تختلف بالتأكيد في الحجم وهذا الاختلاف يعود إلى عدة أسباب قد يؤدي بعضها إلى أن تصغر الدول، إلى أن تضمحل وتتلاشى قلا يبقى لها من أثر. وهنا يجعل منيف الدول خاضعة لقوة الطبيعة، وغياب الفعل البشري! فالجراد مثلاً والهواء الأصفر وقلة الأمطار أسباب كافية لتقضي على أكبر دولة (33).

وقد تؤدي أسباب أخرى إلى استمرار هذه الدولة وإبقائها لفترة أطول وكانت هذه الدول تستقر لبعض الوقت. تهدأ وترتاح لكن هذا الهدوء لا يستمر طويلاً فسرعان ما يعود الجنون إلى عقولهم، ويحول تلك البلاد إلى جحيم وبنفس سرعة الجنون ينتهي كأن لم يحدث شيء. إن قانون السلطة في تلك المناطق لم يكن يسمح لأmirين أن يجتمعا في مكان واحد، فالمكان لا يتسع إلا لواحد هو الأقوى الذي استطاع أن يفرض نفسه.

وكما قلنا ليس هناك قانون واضح، فإذا ما استحلى أحد الأمراء منطقة معينة لما فيها من خيرات وربما لموقع تلك المنطقة، ليس عليه إلا المجازفة والدخول في حرب إما أن يخسر ويعود من حيث أتى، وإما أن ينتصر ويظفر بكل ما يترتب على هذا الانتصار من مغنم. وبما أن المكان لا يتسع لاثنتين كما هي القاعدة فإن الأمير المهزوم إما أن يجلو مهزوماً لآخر غيره وإما أن يريحه الأمير الفائز من هذا الإحساس وينهي حياته في التو واللحظة التي ينتصر فيها (34).

الدول في تلك الفترة مرتبطة بأمرائها فما دام الأمراء أحياء وأقوياء فإن الدول موجودة ومستمرة وقد تمتد وتتسع تبعاً لقوة الأمراء وتحالفاتهم، أما إذا هزم الأمراء أو قتلوا فالدول تندثر ولو إلى حين؛ إذ يحاول أبناء الأمراء المهزومين مرة أخرى استعادة ملك الأباء والأجداد لتبدأ دورة لا تنتهي من الكر والفر وأخيراً الثأر (35). وهذا ما حصل مع فرحان بن سحيم الذي هزم وهرب بعد الهزيمة. أمراء يقاتلون ينتصرون ويهزمون، وبعد ذلك ينتهون، ولكن انتهاءهم لا ينهي القضية، ولا يضع حداً لهذا السيل الجارف من الدماء، ربما ينتهي دورهم لكن الدور الأكبر يبقى للأبناء حتى تستمر عجلة الموت.

خريبط بن فرحان لم يستطع السكوت على الثأر فقتل مزهر وجلس مكانه كما هي العادة: من يقتل أميراً يستلم الإمارة. إن ما نستطيع استنتاجه من كل ذلك أنه لم توجد دولة محددة تتحكم بكل ذلك وكما يقول ابن خلدون " أن الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل أن تتحكم فيها دولة " (36).

كانت هذه القبائل والدول تتفاوت في حجم النزاع فالنزاع أيضا يرتبط بحجم الدولة أو القبيلة، فالدول الصغيرة تتنازع مع بعضها بعضا بعيدا عن الدول الكبيرة، لكن تلك الأخيرة تتدخل إذا لزم الأمر ويصل الصراع حدودا كبيرة يجب التدخل معها، فالدول الكبيرة التي كانت في أوقات سابقة تتسامح وتنتظر أنها لا تعرف ولا ترى حين يتنازع الصغار على المياه والمراعي، وكانت تتركهم يقتل بعضهم بعضا وتحتمل أيضا ضجيجهم وأحيانا طيشهم، لم تعد قادرة على الاحتمال والتسامح في هذه الفترة (37).

من المقصود بهذه الدول الكبيرة ؟ هل هي من ضمن الصحراء ومن ضمن المجتمع العربي الروائي ؟ أم هي قوى أخرى تتدخل في الشؤون العربية في تلك المجتمعات ؟

رغم كل الوصف السابق لتشتت تلك المجتمعات وتفتتها وكثرة الصراع بينها إلا أنها تحسب حساب قوة عظمى وكبرى هي بريطانيا. بريطانيا هي ما تسمى " الدولة الكبرى " في تلك الفترة. كانت كثيرا إذا لم يصل الأذى إلى حدودها تترك هذه الدول تتنازع وتتحارب دون التدخل، كان يروق لها أن تصفي تلك المجتمعات بعضها بعضا حتى يخف العبء عنها. كلما زاد عدد هذه المجتمعات زاد الضغط على تلك الدول. ليس لسرعة تدخلها في المشاكل ومبادرتها لحل تلك القضايا بل لكثرة استجارة الدول الصغيرة بتلك الدولة العظمى، فأى أمير يواجه مشكلة مع أمير آخر يسارع إلى بريطانيا لتقف بجانبه ليستطيع تصفية هذا الأول. لكن بريطانيا إذا لزم الأمر تتدخل خصوصا إذا وجدت أن الموضوع يمسها بشكل رئيسي، فإذا ما وقف أحد الأمراء مع أعداء بريطانيا عندئذ يطيب لها التدخل والتخلص من هذا المتطاول المتعدي. وهذا تماما ما حصل مع مزهر بن سحيم الذي أخطأ خطأ عمره وذهب ليتعاون مع أعداء بريطانيا وحتى تخلت عنه بريطانيا وباركت قتله على يد خريبط ابن فرخان بن هديب ووجدت في خريبط الرجل المناسب ليقى عينا لها في الشرق في هذه الصحراء.



لم تكن بريطانيا لتترك تلك الصحراء وحدها وإن تركتها تتصارع لفترة فإنه يطيب لها أن تبعث بين فترة وأخرى أحد أعوانها ليطمئننها على الأجواء وأيضا ليثبت لمن هناك أن بريطانيا موجودة تعرف بكل ما يجري ولا يخفى عليها خافية، حتى لا يطمع من في قلبه مرض بالخروج عن طاعتها فلن تسكت ولن تتركه يتمرد عليها (38).

إن الغرب موجود في الشرق منذ القدم، لم يكن النفط هو السبب الوحيد لوجود الغرب لكنه وجود سطحي لا يدخل إلى الأعماق لعدم وجود أي إغراء له بالوجود. وإنما يأتي فقط لإثبات القوة. فيما بعد تعمق هذا الوجود وتواصل لوجود الاغراءات. مثل هذه الدول لا تهتمها إلا مصلحتها فأينما وجد مجال للكسب تتواجد فيه و تفرض نفسها فرضاً.

ويمكن القول باختصار إن النظام القبلي المسيطر يقوم على جمع السلطات كلها في شخص السلطان فهو المشرع والقاضي والمنفذ وهو الحاكم المطلق. ربما يستعين السلطان أحيانا في إدارة الدولة بأولاده أو كبار العائلة وزعماء القبائل وشيوخ الدين وبعض التجار والوجهاء (39)، شريطة أن يكون رأيهم من رأيه وإذا ما خالفوه فمصيرهم معروف، التهجير في أسهل الحالات ثم القتل، وإذا لم يجد السلطان مستشارا لجأ إلى الدولة العظمى -كما أشرنا- لتبعث له " هاملتون " مستشارا يعمل على تفكيك البلاد، ويسهم في التنكيل بالعباد، يظهر الود للسلطان والعرب، وقلبه مملوء بالحقد ويطمع فضلا عن حرصه على نشر الأفكار الغربية في بلاد العرب (40). وإذا كان فكس الأمريكي في " رسمت خطأ في الرمال " يقسم الدول بقلم الرصاص فإن هاملتون يخطط لقتل المعارضين وتصفية المنافسين ويبدو في هذه الرواية خبث السياسة الإنجليزية التي تسعى لتحقيق مصالحها العليا وتأخذ بعين الاعتبار متطلبات شعبها فقط، ولا تقدم لأحد مساعدة إلا إذا كان من وراء ذلك مصلحة خفية وقد تجلى ذلك من خلال حديث هاملتون مع السلطان حيث شرح له مفهوم السياسة التي تبدو في نظره " وليست الترغيبات وليست الأفكار التي يتعلمها الطلاب... السياسة شيء آخر تماما، إنها صراع

القوى والمصالح والإرادات والممكنات وهذا الصراع من التعقيد والتشابك إلى درجة يبدو بعض الأحيان مستحيلاً أو دون حل خاصة بالنسبة لأفراد وقوى وحتى لشعوب معزولين وبعيدين " (41). ومع ذلك كله فإن "مدن الملح" تقدم ضرباً من المقاومة لا يمكن إنكارها بدت ملامحها في "التيه" كما سنرى، وتبدو ملامحها في "نقاسيم الليل والنهار" حيث ترصد الرواية معارضة عمير شقيق زوجة السلطان وخال ولده ولي عهده "فتر" حيث يصفه السلطان بقوله: " ترى عمير وأمثاله يخربون ديرة وينجسون عشيرة" وبنبه الرواي إلى أن المعارضة تنكئ على الدين (42)، ومن المعارضين ابن مياح الذي يغير على القوافل (43).

وإذا ما عدنا إلى الكشف عن العلاقة مع الأجنبي والتبعية له فإن المستشار الإنجليزي لا يخجل من توجيه التهديد إلى صديق بريطانيا السلطان خريبط عندما يقوم بأعمال لا تتفق مع السياسة الإنجليزية وتجلى ذلك بما قاله هاملتون للسلطان " جنئت إلى هنا يا صاحب الجلالة لكي أقدم احتجاجاً باسم حكومتي على هذه الاعتداءات ولكي أبلغكم أيضاً أن حكومة صاحب الجلالة تحتفظ لنفسها باتخاذ الإجراءات التي تراها مناسبة بما في ذلك الرد العسكري" (44)،

إن هاملتون كما ظهر دوره في الرواية ما هو إلا حاكم عسكري إنجليزي يدير الأمور من خلال السلطان ويوجه سياسة السلطنة في الاتجاه الذي يخدم "مصالح بريطانيا مستخدماً الترغيب بالهدايا والسلاح والمال والترهيب بالرد المناسب والتدخل العسكري إذا لزم الأمر. هاملتون يلقي على السلطان درساً في كيفية الاحتفاظ بالأراضي المحتلة ويقول: " في سبيل الحفاظ على الممتلكات الجديدة فإن خير الوسائل وأكثرها طمأنينة هو أن يقرر الحاكم الجديد إقامة مقره في الممتلكات الجديدة وهذا القرار يجعل الامتلاك أكثر سلامة وأطول أمداً" (45).

أما وسائل السلطان في احتواء الخصوم فهي تلك الوسائل التي عرفها العرب قديماً، والمتمثلة في مهاجمة الخصم الذي يمكن قهره عسكرياً كما حصل مع السلطان

خريبط الذي هاجم ابن ماضي سلطان العوالي، أو الاحتواء عن طريق المصاهرة كما حصل مع السلطان خريبط الذي خطب ابنة العجرمي (46).

هذه الصور التي رسمها الروائي في هذه الرواية تمثل واقع حكام السلطات التي لا تستطيع الواحدة منها القيام بأي عمل دون الرجوع إلى المندوب السامي البريطاني الذي يظهر أحيانا كالمظالم والأيام وأحيانا كالنمر ولا يخفى أن القرارات تتخذ في لندن.

لقد انعكست البنى السياسية والعيش في أحضان الماضي المتخلف القائم على الاضطهاد والقمع - على تشكيل القيم وأنماط السلوك وأظهرت الإنسان العربي كأنه يعيش في قرون التخلف والظلام. ولعل من أبرز القيم الشائعة في فترة ما قبل النفط الإيمان بالغيبيات إلى حد عطل العقل وحيدته وأصبح الدين سلبياً بدلاً من أن يكون مصدر إلهام وإبداع، ففي "رسمت خطأ على الرمال" يقتصر فهم القرآن الكريم على الإيمان بالجن والتداوي بحروف القرآن واستبعاد التداوي بالعلاجات المعروفة:

أخبرني فضيلته أنه قد كتب لي عمر جديد.. قال أنني نجوت بقدره قادر من المس واللبس والصرع والخرع والصدع وجميع حالات الجنون التي تصيب الجن بها أمة محمد. قال إنني لو حملت في الجنية لأصابني النظر بسهم من سهام الجنس الإبلية...

سألني في أي يوم حدث الحادث فقلت انه الأربعاء قال لكل يوم حرفة وأن شيطان يوم الأربعاء هو الملك برقان أحد ملوك الجن السفلى. قال أنني مررت على ماء غير ظهور أو على نجاسة تتبخر أو على عظم فتنت في الظلام. قلت إنني كنت مضطجعا على غاز الهيليوم... و يصف له الشيخ وصفة تكتب بها سورة التكويد وسور أخرى في إناء صيني ثم تمحي الكتابة بماء الورد والمسك وتسقى منها أربعة أيام" (47).

وفي مقطع آخر من النص يطل علينا هذا المعنى على لسان الساردة " شهرزاد" حيث تتحدث عن نوم "شهريار" العميق بعد الألف ليلة وكيف أنه طوف في

البلدان ليبحث عن العرافين والمنجمين وطرد الجن لم يبق مزار إلا وقصد لحل مشكلة النوم عند شهريار ولكن لا فائدة من ذلك (48).

وبغض النظر عن هذه الدلالة فإن النص يشي بأن الإيمان بالغيبيات لا يكفي "حملت شهريار إلى الحرمين الشريفين، قلت: إذا لم توقظه الكعبة والنبي فلن توقظه كرامة ولا شفاعة" (49).

إن هذه المسألة تشير إلى ثبات القيم وأساليب التفكير منذ سبعمائة عام كما يحدد النص في حديثه عن غيبوبة شهريار بحيث يكون تحقيق أي مشروع نهضوي أمراً غير ممكن. وتفقر الساردة من الماضي البعيد إلى ماض قريب وتشير إلى "لورنس العرب" الذي كان عالم آثار ومحارباً وجاسوساً (50)، ثم تنتقل إلى الحداثة لتكتشف بأن شهريار الذي استيقظ لتوه ما زال يهذي بالتمائم والفضاءات الدينية ويحلم بعد يقظته كيف يصبح ملك المكان بعد أن كان ملك الزمان.

وتكشف رواية "رسمت خطأ" عن مدى حب الإنسان العربي للماضي وتوقه إلى الرجوع إلى التاريخ والالتكاء على الموروث سلباً وإيجاباً، فكما هو الحال في "مدن الملح" يتنافس الأمراء والشيوخ ليصبحوا سلاطين وخلفاء متكئين في ذلك على النص الديني، وللحصول على السلطة يصبح كل شيء مباحاً: القتل وسفك الدماء بالمفرد والجملة. وعلى الرغم من أن السارد يتحدث عن طموح الأعرابي الذي يريد أن يستعيد عهد الشيخين أبي بكر وعمر فإن محمد بن عبدالوهاب وحركته لا يمكن أن تغيب عن ذهن القارئ، بقطع النظر عن رؤية الكاتب. ومهما يكن، فإن "الأعرابي استمرراً القتل للوصول إلى السلطة:

"بعد صلاة العشاء مرت ساعة تقاس بالدهر. ثلاث مرات صلى العشاء، وبعدها تقدم ولديه (!) وعبيده وغلماؤه بأيديهم بواريد وفي جلابيهم رصاص. تقدموا نحو قصر أخويه في ظاهر البلد أثبت فوهة بارودته في صدغي أخويه. وسمح للنار بالانفجار في الدماغين النائمين" (51).

إن قيمة سفك الدماء والقتل المجاني تبرّر كما أسلفت - بالاستناد إلى القرآن الكريم. ففي كل حادثة قتل يجعل الحاكم القرآن مرجعيته " وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال إني أعلم ما لا تعلمون " (52)، هكذا يمتلك السلطان المعرفة الكلية والعلم بالغيب فيفعل ما يشاء، وكان منظر القتل يبعث في نفسه النشوة والبهجة: " بيده كتاب الله وبيده بارودة بدأ بآل غنمان فأردى أكباد شيوخهم.. وتابع بآل نويران وآل رشيدان وبكل آل " (53)، ويستحلي هذا الأعرابي الرجوع إلى القرون الخالية، لأن البارودة لا تزيه منظر الدم أما السيف فهو المجد والبطولة (54).

أما المرأة فكانت تعيش حالة من الكبت والقمع وانعدام إنسانيتها، ففي فترة من التاريخ في القرن الثامن عشر قبل اكتشاف النفط يحيلنا الكاتب بأسلوب عجائبي إلى عهد الجواري ليدلل على أن الوضع ما يزال على ما هو عليه؛ إذ يكون للخليفة أو السلطان محظيات تعيا على الحصر. ولعل مثل هذه الكثرة المصاحبة بالسجن في الدور والقصور؛ إذ لا تخرج الجارية إلا نادراً - تقضي إلى الانحراف، والبحث عما يلبي الرغبة. تروي لنا شهرزاد في " رسمت خطأ في الرمال " قصة عشر من النسوة جُلبن شهريار إلى الحمام ليمر وقت نفسي لا يقاس بالساعات امتزجت فيه المعاناة باللذة، إذ وجد شهريار نفسه يتعرض "للمياه الحارة والسياط والأظافر الخامشة والأصابع القارصة والصهيل المنغرز في جسدي والصابون والليفة والمشط" وفي الوقت نفسه وجد نفسه يلبي رغبات نساء يتقن إلى العشرة والممارسة الجنسية، ويكشف النص بطريقة مباشرة الحد الذي وصل إليه المجتمع من حالات التردّي الاخلاقي الذي يعود إلى استمرار القرون الوسطى وعهود الجواري والحريم فضلاً عن هيمنة الحاكم وامتلاكه للأشياء والإنسان " (55).

وقد يبلغ الأمر أحياناً كثيرة إلى حدّ تفضيل المرأة على الأرض والناس والأوطان، فزيادة إلى الإشارة إلى "الجمالين" والبداءة والحياة البدائية في الثقافة والأحوال المعيشية، يبدو المجتمع متردياً إلى درجة التخاذل والذل، فالتفكير لا يتجاوز

الفرج والبطن ولا سيما عند الحكام: " قال المترجم: السيد الرئيس يريد من جلالتم وعدا ألا تعطوا للإنجليز ولا لغيرهم امتيازاً نفطياً فقط للأمريكيين" (56)، وهنا يبدو هاني الراهب أكثر صراحة ومباشرة في تعبيره عن ميل السلطان إلى إشباع الرغبات الجنسية فمتعة الفرج عند الحاكم تفوق كل شيء حتى لو كانت مقدرات الأمة، فحين تسابقت الشركات للحصول على الامتيازات للتقيب عن النفط فضل الحاكم ما يشكل له هاجساً: " ليس أيسر على الحاكم من تلبية طلب صاحب الفخامة، النفط ! ليأخذ النفط كله ما دام لم يطلب واحدة من نسائه" (57). ويضاف إلى ذلك تفشي الأمية وانتشار الجهل والفقر والإيمان بالخرافات، بيد أن قيماً إيجابية شاعت في هذه المجتمعات مثل الكرم والتكافل الاجتماعي والتواصل الإنساني وحب الأرض والانتماء... إلى غير ذلك، كل ذلك كان قبيل اكتشاف النفط، فما الذي حدث عند مجيء الآخرين ؟ ما ردة فعل أبناء المنطقة للمجيء الغربي ثم لوجوده ؟ هذا ما سيعالجه الفصل التالي " الفعل وردة الفعل

## الفصل الثاني

### الفعل وردة الفعل

إنه لمن البديهي القول إن التواصل سمة إنسانية، سواء أكان ذلك على مستوى الفرد أم على مستوى الجماعة. وقد اتخذت هذه النزعة البشرية أشكالاً متعددة تمثلت بالرحلات الفردية أو الهجرات الجماعية أو الحروب أو العلاقات الاقتصادية والثقافية... الخ. وقد وثقت الأدبيات التاريخية هذه العلاقات المعقدة بين الجماعات البشرية، كما أسهمت الأعمال الإبداعية في التعبير عن أشكال العلاقات هذه.

وقد حظيت هذه المسألة باهتمام الأدباء والمفكرين بشكل متزايد منذ بدايات القرن التاسع عشر إلى أيامنا هذه ولا يجد المرء صعوبة في التذليل على هذا الاهتمام، إذ تكفي الدارس مطالعات متسعة لكتابات الطهطاوي والشدياق والمويلحي وغيرهم ممن عنوا بالتواصل الثقافي. ولعلّه من المفيد الإشارة هنا إلى أن هذه الأدبيات في القرن التاسع عشر، ثم ما تبع ذلك من إنتاج روائي في القرن العشرين رصد مواقف المفكرين ومن ثم مواقف الناس تجاه التواصل البشري، ولا سيما التواصل مع الغرب في المجالات التكنولوجية والاقتصادية والاستعمارية. وقد انتهت الدراسات التي عالجت هذه المسألة إلى أن مواقف المفكرين العرب تجاه الغرب انحصرت في ثلاثة اتجاهات: استحسان وقبول كل ما هو غربي، ورفض الغرب لما فيه من توجهات تسلطية استغلالية ونزعات مادية لا تتسجم مع ما استقر في الوعي العربي من قيم واعتقادات. أما الاتجاه الثالث فنحا منحى التوفيقية: امتحان مفردات الحضارة الغربية والإفادة منها بما يتفق والثقافة العربية الإسلامية، ولا يعني رصد هذه الاتجاهات ترتيباً تاريخياً زمنياً وإنما يعكس آراء مختلفة في فترات متباعدة أو متقاربة. ففي حين يستحسن أحمد فارس الشدياق بعض القيم الغربية ويتبناها، نجد الطهطاوي وهو معاصر له يطوع القيم الغربية المادية والمعنوية لكي تستجيب لروح الثقافة العربية الإسلامية. أما المويلحي فقد جعل الإسلام في كتابه: "حديث عيسى بن هشام" مقياساً لقبول المفردات الغربية أو

رفضها، كما أنه دعا إلى يقظة الأمة الإسلامية وتطورها، ورأى أنه ما من حضارة وافدة قادرة على الحلول في بلد آخر إلا إذا كانت حضارة هذا البلد غائبة أو ضعيفة. وفي القرن العشرين كثرت الروايات التي تناولت هذه الثيمة، وقد نهجت المنهج نفسه من حيث ردود الأفعال، فبعض الروايات قبلت بالغرب قبولاً تاماً كما هو الحال في "أديب" لطف حسين، وبعضها رفض الغرب بماديتة وعلمانيته، ومثل ذلك الحكيم في "عصفور من الشرق" وعبد الحميد جودت السحار في "جسر الشيطان"، وذهبت بعض الروايات إلى التوفيق على النحو الذي طرحه يحيى حقي في "قنديل أم هاشم"، وسهيل إدريس في "الحي اللاتيني". وهذه الدراسة ليست معنية بدراسة هذا الموضوع دراسة مستفيضة وإنما لجأت وستلجأ إلى الإشارة إليه بغية وضع المسألة قيد المناقشة في سياقها التاريخي والأدبي.

إن التوظيف السابق ينطبق على روايات كاملة كما ينطبق على مواقف شخصيات روائية في عمل واحد على النحو الذي نجده في الروايات التي جعلت النفط جزءاً من اهتمامها أو مركز اهتمامها؛ فقد ارتبط النفط بوجود الأجنبي وأفرز منذ بدايات التنقيب عنه مواقف متباينة تجاه الآخر، وهي مواقف تتناغم إلى حد كبير مع المواقف الفكرية التي رصدها الباحثون في روايات اللقاء الحضاري (58).

ويهدف هذا الفصل إلى التحديق في ردود الأفعال الأولى تجاه مجيء الأجنبي - التي يفترض أن تعبر عنها الروايات العربية التي حاولت أن تكشف عن أثر تفجر الثروة النفطية في الحياة العربية وعمماً طراً على هذه الحياة من تطورات وتغيرات حادة لامست البنى الثقافية، وإذ تعول هذه الدراسة على التعبير الفني الروائي في رصد الأفعال وردود الأفعال، فإنها لا تحيد الوثيقة التاريخية طالما كان ذلك ضرورياً لإغنائها وطالما كانت الحياة في المجتمع الروائي صدى لحياة المجتمعات العربية وتعبيراً فنياً عنها.

إن الروايات العربية قيد الدراسة لم تحدد بالدرجة نفسها في ردود الأفعال الأولى، أي عند مجيء الأجنبي، وإنما صب بعضها الاهتمام على ردود الأفعال بعد أن



بدأ المجتمع النفطي باستهلاك منتجات الأخر، فعبرت هذه الروايات عن موقف الناس من المذيباع والكهرباء واستيراد الملابس والمنتجات الغذائية وما رافق ذلك من قيم. ولعل "مدن الملح" ولا سيما الجزء الأول منها "التيه" هي العمل الأبرز الذي وقف عند بدايات قدوم الأخر، وتأمّل مواقف الناس، ومن هنا فإن هذا الفصل سيعول على تحليل ثلاثة مواقف متباينة بوضوح في "التيه" رابطاً هذه المواقف بشخصيات تمثلها: موقف رافض مقاوم للوجود الأجنبي، وموقف يقبل الأخر ويسوّغ هيمنته بالمكتسبات التي سيجنيها الناس بعد استثمار النفط، وموقف ثالث يميل إلى الحياد ويفضل الإرجاء والترقب فيبدو كأنه مفتقر إلى الوعي بما يجري وما سيجري. ولعلّ مسألة "الاستغراق الزمني" أو ما يسمى "الديمومة" التي تقارن زمن المتن بمساحة المبنى تكشف لنا عن موقف جليّ للراوي الكلي العلم ومن خلفه المؤلف، إذ تثبت الرواية كما سنرى أن الاتجاه الرافض يحظى بوقفات متباينة يمتزج فيها السرد بالوصف لا سيما وصف الأرض التي تشكل إحدى علل السرد الكبرى، لأنها تدفع بالسرد وتعمل على استمراره. وفضلاً عن ذلك يلجأ الراوي إلى المشاهد المطولة التي يبرز المقاوم قوياً الحجة مقنعا للمتلقّي، في حين يميل السارد إلى استخدام تقنية التلخيص والمشاهد القصيرة حين يبرز لنا مواقف القبول، وسنرى إن الاختصار الشديد والحذف (59) تقنيتان تبرز من خلالهما الشخصيات الحيادية والهامشية. إن هذه الإشارة لا تعني أن منهج الدراسة يميل إلى تحليل التشكيل الفني أو أساليب السرد بمقدار ما تعني أن ثمة تضافراً بين الشكل والمضمون.

وقبل الولوج في تحليل ردود الأفعال الأولى في مدن الملح/التيه، أرى أنه من الضروري الإشارة إلى رواية تسجّل مواقف الناس تجاه الأخر الأجنبي بعد اكتشاف النفط وأثناءه من وجهة نظر فكرية تقترب - إلى حدّ ما - من تلك التي أمعن في تصويرها منيف، مع اختلاف بيّن في الأسلوب السردي والتقنيات المستخدمة: وفي حدود ما أعلم فإنها أول رواية عربية ناقشت موضوع النفط، والتدخل الغربي في العالم العربي في القرن الفائت - وهي رواية شمروخ لمحمود تيمور.

تدور أحداث هذه الرواية على أرض زيتستان، وهي جزيرة عربية متخيلة. ويروي أحداثها منصور المصري، وهو من مصر، من خلال علاقته مع عدة شخصيات وعلى رأسها شخصية الأمير همّام؛ أكثر الشخصيات تحريكاً للأحداث وتطويراً للحبكة، وهمّام هو ابن "مديح الأرض"، حاكم الجزيرة. درس همّام في القاهرة، ثم سافر إلى إنجلترا حيث درس الاقتصاد والعلوم الاجتماعية والتاريخ، وعندما عاد إلى مصر التقى منصور المصري، الذي عاد معه فيما بعد إلى الجزيرة. بعد عدة زيارات إلى الخارج أقام همّام والمصري في الجزيرة، منتقلين بشكل مستمر بين "الطاهرية": العاصمة القديمة- "والمديحية" العاصمة الجديدة ومركز النشاطات السياسية والاقتصادية. وجد همّام نفسه أمام ثلاثة أحزاب سياسية: 1- القرية الطاهرة بقيادة نعتان المبارك، أمير مدينة الطاهرية. 2- الرشاد الحرّ بقيادة مديح الأرض. 3- حزب العمال بقيادة شهاب، قائد العمال.

وفيما يتعلق بهمام أسس حزب الشعب، وهو حزب يقف على النقيض من حزب القرية الطاهرة الذي يدعو، كما سنرى، إلى تدمير آبار النفط، والمحافظة على الإسلام، ويقف أيضا على طرف مناقض من أفكار حزب الرشاد الذي يؤيد "التغريب" واستغلال النفط. وتقول الرواية إن كلا من الحزبين حاول أن يستميل همّاما من خلال المرأة! ومن هنا يعيش همّام في صراع بين إشراق المدعومة من حزب القرية الطاهرة، والأنسة الإنجليزية فلورين المدعومة من حزب الرشاد الحرّ والشركة النفطية. لقد حاول همّام الاحتفاظ بالنفط والتقاليد الوطنية. يزور همّام الطاهرية ويلتقي نعتان وابنة أخته إشراق، وقد حاول أن يفهم مطالب الناس ويكسب تأييدهم لأفكاره الوطنية الداعية إلى تطوير الجزيرة. يقوم همّام أيضا بزيارة العاصمة الجديدة (المديحية) بصحبة الراوي منصور المصري للقاء الحاكم الذي عاد لتوّه من زيارة إلى الخارج واستقبل عند وصوله بمظاهرات عمالية تطالب بطرد الأجانب من جهة، وامتلاك جزء كبير من ممتلكات الشركة، وقد فوجئ الحاكم بأن هذه المظاهرات تمت بمباركة ابنه. وفي وقت لاحق نقرأ أن مساندي الحاكم خطّوا للإيقاع بالوطنية من

خلال تشويه السمعة؛ قتلوا امرأة إنجليزية واتهموا العرب بذلك؛ مما حدا بمديح الأرض إلى إلقاء القبض على همّام ونفيه. قامت الحركات القومية (سكان الطاهرية، حزب الشعب، وبعض الجنود) بمقاومة الحكومة والأجانب؛ مما أدى إلى خروج الحاكم ومؤيديه، يُختار نعلان المبارك حاكما جديدا، ويُعيّن همّام رئيسا للوزراء؛ إذ يشكل حكومة ائتلاف تضم الأحزاب الثلاثة. وتنتهي الرواية بخطوبة إشراق.

إن تحكي هذه الرواية قصة الاستثمارات النفطية في جزيرة متخيّلة أسماها الكاتب زيتستان، ويحلل من خلالها أثر النفط، واستغلال الشركات الأجنبية للنفط والإنسان، والصراع بين الطبقات المستغلة وجمهور الناس. ويبدو من خلال هذا العمل أنه بالإضافة إلى دور الشركة الوحيدة في جزيرة زيتستان - في التنقيب عن النفط واستثماره؛ فإنها قامت بثلاثة أدوار جليّة، أولا: أنها روّجت الأفكار الغربية، وأشاعت بعض العادات والتقاليد الغربية، سواء ما تعلق منها بالشراب أو اللباس أو غير ذلك. ثانياً: أصبحت الشركة بوقا دعائيا لبريطانيا، وهي الدولة التي تنتمي إليها؛ إذ مدحت السياسة البريطانية، ورفعت شعارات تشيد بها، مثل: "بريطانيا صديقة العرب"، و"بريطانيا هي الدولة التي تحمل لواء الحرية والحضارة والعدالة" (60)، والشركة بذلك تسعى إلى تمكين الهيمنة البريطانية على الأرض العربية. ثالثا وأخيرا: تدخلت الشركة في الشؤون الداخلية لحكومة الجزيرة، فعلى سبيل المثال قدّمت الشركة اقتراحا لتعيين ضباط أجانب في مصلحة الشرطة في الجزيرة (61).

وعلى الرغم من ذلك فقد قامت الشركة ببعض الأعمال الإيجابية؛ كشق الطرق وإدخال السيارات والطاقة الكهربائية؛ وقد دفع الوجود الأجنبي بعض العرب لتبني مظاهر الحياة الغربية؛ فإشراق على سبيل المثال أسست جمعية النساء العربيات على غرار الجمعية التي أسستها السيدة فلورين وهي شخصية بريطانية (62).

إن وجود الأجانب، زيادة على محاولات بعض العرب تقليد الحياة الغربية، أفرز ردود أفعال متباينة تتمثل في ثلاثة اتجاهات لكل اتجاه شخصياته، أولا: دعمت السلطة السياسية ومساندوها الاستثمار النفطي والتدخل الأجنبي، واستند هذا الدعم على أن النفط

يقدم كثيرا من الأمور التي تحسن الظروف الحياتية في الجزيرة. بيد أن الرواية تشي من زاوية أخرى بأن هذا الاتجاه مدفوع إلى الدعم لتحقيق مكاسب شخصية. أما الاتجاه الثاني فيرفض النفط والوجود الأجنبي معاً، لقد أطلق سكان "الطاهرية" - وهي العاصمة التاريخية التقليدية للجزيرة - على النفط اسم "شمروخ"، وهو اسم لجن؛ لاعتقادهم بأن النفط تحت سيطرة الأجنبي ولا يفيد منه أبناء الجزيرة، لقد ساووا بين شمروخ والاستعمار الغربي، ودعوا إلى تدمير المنشآت لتحرير بلادهم (63). وقد سوغوا رؤيتهم على لسان "تيسان المبارك" أمير الطاهرية بأن النفط يفسد القيم الأصيلة" ويهدد مبادئنا الدينية وهويتنا" (64). وثمة اتجاه مثله الجيل الجديد من أمثال الأمير همّام وشهاب قائد العمال، وهؤلاء لا يرفضون النفط، ولكنهم يقاومون هيمنة الأجنبي على الشركة والشؤون الاقتصادية. العمال طالبوا بأن يكون لهم دور في الشركة. ويبدو أن تيمور الذي يدين التدخل الأجنبي، ويدعو إلى تبني القيم الإيجابية في الحياة الغربية - يدعم، بوضوح، أفكار الاتجاه الثالث. وهذا الاتجاه يُبدي اعتزازا كبيرا بالحضارة العربية الإسلامية، ولكنه يعتقد أن التعليم ضروري لإحياء الأمة العربية؛ ومن هنا يكون من الحيوي الاقتراض من الحضارة الغربية. ويرى همّام، الشخصية المركزية في الرواية، أن الحضارة الغربية إنما تكونت نتيجة إنجاز بشري، ومن هنا فلا ينبغي أن تُرفض. وهو في هذه المسألة يسعى إلى الاحتفاظ بهويته وشخصيته القومية مع تبني الحضارة الحديثة (65).

حين رسم عبد الرحمن منيف صورة للأرض العربية قبل ظهور النفط وبعده في وادي العيون وعجرة وحران وغيرها من أراضي المجتمع الروائي، وضع يده على نقطة الصراع التي شكلت أكثر من ثنائية ضدية عاشتها الأرض في تلك الحقبة: صراع الحضارة / البداوة، النفط / الماء، المثل / التحرر الأخلاقي.... الانتماء إلى الأرض / والانسلاخ عنها.

ولعل في الحواريات التي دارت بين أهل وادي العيون ما مثل هذه الثنائيات ؛ فقد حاول متعب الهذال أن يبرز وعيا بدا سريعا انفعاليا، ثم تبلور موقفا صلبا وهو، أيّ

الهدال، كما يصوره النص أحد أبناء الأرض المخلصين والبدو الأصلاء الذين استشعروا بفطرتهم ما يمكن أن يؤول إليه مجيء الآخر واكتشاف النفط في باطن وادي العيون من ضياع لكل ما هو جميل : البراءة، الأخوة، الروابط الإنسانية، الماء، الأشجار، جمال الطبيعة... الخ. يرصد النص ما حدث بإسهاب فيها هو المعسكر يقام والآلات تهدر والعيون تنظر بريية وخوف يصل إلى حد الفرع إلى هؤلاء القوم. ماذا يريدون؟ وعم يبحثون؟

جاءت هذه التساؤلات مبررة؛ نجمت عن العزلة واستعذاب المعاناة. فبمقدار ما يحمل وادي العيون من مظاهر القساوة وغضب الصحراء المحيطة به، يحمل أيضا معاني التلاحم والتواد والتصاق الإنسان بالأرض إلى درجة الاتحاد. ولعل الفرع الذي يشعر به الناس ناجم عن الخوف من تغيير شكل الأرض والطبيعة، وبالتالي تغيير شكل الإنسان وزعزعة قيمه. وتحذير الهدال يكشف عن وعي بضرورة المحافظة على الأنا، والأرض هي الأنا، هي الرحم الذي يحتضن البشر، ومما يعزز ذلك أن وصف الوادي ووصف الصحراء قدم بطريقة شعرية تمزج البشر بأحزانهم وأفراحهم - بالأرض، وتشي بأن ما يصيب الأرض يصيب البشر وأن مستقبل البشر مرتبط بمستقبل الأرض. وهنا يتجاوز منيف وادي العيون وغيرها من المناطق لينصرف التشبث بالأرض إلى كل أرض عربية.

إن بنية الاستهلال السردية في " التيه " تثبت أن منيفا يلجأ دائما إلى أنسنة الأرض: " إنه وادي العيون... " استهلال يوحى بالشوق، والجملة بإيقاعها " فاعلاتن فاعلات " تستدعي الحداء وما يحمله من إشارة إلى الحزن والفرح في آن معا، زيادة على ارتباط هذا الإيقاع وتردده في الصحراء.

إن ردة الفعل الأولى التي جاءت على لسان الهدال سريعة وصارمة تشبه الفعل نفسه: إذ جاء الآخر سريعا ودونما استئذان، ألوان الأمريكيين وأشكالهم أثارَت الذعر، كأنهم جنس غريب نزلوا من السماء وما قام به هؤلاء من فعل في الأرض أفضى بالضرورة إلى ردة فعل مشابهة. وهنا يحذر متعب قومه قائلا: "ارجعوا يا أهل وادي

العيون، إذا لم ترجعوا حرقتكم النار وما بقي منكم أثر" (66). وقد جاء خطابه موجّهاً إلى الجماعة؛ ممّا جعل بعض الدارسين يعدون هذه المسألة سمة ملحمية في الرواية؛ فقد أوضح العتابي كما أوضح غيره في محاولة إثبات الملامح الملحمية في الرواية أن ضربات الماكنة الأمريكية للكشف عن النفط اكتسبت بعداً أسطورياً، ويحلل أسباب مقاومة متعب الهذال لهذا الفعل فيقول:

"عندما يقود ابن الهذال الصراع ضد الجهات الأجنبية والمتعاونين معهم في التنقيب عن النفط في وادي العيون، وما يرافق هذا التنقيب من تغيير في البنية الطبيعية والاجتماعية للوادي، وذلك انطلاقاً من وعي ابن الهذال بالأشياء والعلائق المحيطة كظواهر مرتبطة بحياة الإنسان ومستقبله، لذلك فإنه يمثل المجموع لا الفرد، فهو مجموع في فرد يحمل هموم الجماعة ويعبر عن أمانيتها وتطلعاتها وذلك لما يحمله ابن الهذال من رؤية وسلوك يومي محكوم بالفضاء الروحي الذي تسبح فيه أفكاره وتصرفاته" (67).

إذن الهذال ليس فرداً إنما هو مجتمع يمثل اتجاهها كاملاً من ردود الأفعال الراضية لهذا الجديد، صحيح أنه في البداية عبر عن ردة فعل منفردة نابعة من وعي بسيط لمن حوله لما سيؤول إليه الوضع، صحيح أنه بدا وحيداً على الساحة يحارب مثل الدونكشوت حين كان يقاوم طواحين الهواء وسط سخرية الجميع واستخفافهم بالأمر، ولكن مخاوفه تحققت وبان للجميع صدق نبوءته.

أقيم معسكر للأمريكان وبدأوا بوضع سياج من الأسلاك في وادي العيون بمعونة الأمير ورجاله وعلى رأسهم الشيخ راشد الذين خدرتهم الدراهم وليرات الذهب الإنكليزية والرشادية التي كانت توزع بسخاء، ولكنهم رحلوا ومعهم الأدلاء، ومتعب لم يقتنع بهذا الرحيل، وإنما اعتبره دليلاً أكبر على الشؤم... وقال:

-الجماعة عندهم سالفة، والماء حجة...

— يدورون عن جن، عن عفاريت ما يندري، لكن ابشروا يا أهل الوادي: إذا طلع الشيء اللي يدورون عليه ما ظل منكم أحد حي (68).

ويقول في موضع آخر ردًا على ابن الراشد الذي يؤيد الأمير في أن ما يهمهم هو الماء:

— اسمع يا ابن الراشد، ما يهمنا الماء وغير الماء، وانت تعرف: انا بالظهرة، وحريمي ما ينزلن للعين، وكل ما عندي بسيتين صغير، يمكن أن أتركه وامشي، الناس في الوادي يههما الماء وغير الماء، يههما العرض، الناموس، وما نريد احد فوقنا، وما نريد هالكفار الخنازير صبح وعشيه، واليوم بهذا الشكل، بعد كم يوم ما نعرف وش يصير (69).

يكشف المقطع الحوارى في هذا المشهد عن أحاسيس الحقد والعداوة تجاه الآخر والسؤال الذي ينبغى أن يقف هنا هو لماذا الحكم المسبق على وجود الأجنبي؟ إن الإجابة على هذا السؤال لم تقدم بصراحة في النص الروائى، ولكننا لن نذهب بعيدا لإيجاد تفسير لهذا الموقف، فالمجتمع الروائى جزء من الأمة العربية التي شكلت في ضميرها الجمعي صورة سلبية تجاه الآخر، وذلك لما قام به هذا الآخر من أعمال سلبية معادية للعرب والتاريخ يقف شاهدا على ذلك ويكفي الإشارة هنا إلى الحروب الصليبية والاستعمار الحديث في شمال أفريقيا وغيرها، وربما يحدث مثل ذلك لمجىء الأمريكى إلى أرض النفط. ولعل منيفا في هذا المقطع يرى في أن يقدم استباقا لشخصية أسطورية ملحمية تؤسس ملامحها على ضوء أحداث سابقة، أي أن منيفا يرى في أن يمهد لظهور بطل شعبي يمثل ضمير الأمة كما سنرى.

لقد تجلت صورة متعب الهذال بطريقة امتزج فيها الواقع والخيال، ولعل الكاتب توصل بهذا التصوير للكشف، كما أسلفت، عن عمق الرفض العربى للآخر. وكان ذلك في بدايات وصول الأجنبي للأرض العربية إذ إن مشاعر الخوف والترقب والحذر ومحاولة الحفاظ على الهوية جعلت العربى يصور الآخر سلبيا معتديا يحاول انتزاعه من جذوره.

اتسمت شخصية متعب الهذال بالبعد الأسطوري منذ بداية ظهورها، فتبدو شخصية متعب فريدة من نوعها في شفافيتها وصدقها وإحساسها المبهم بما يمكن أن

يحدث لأهله وعشيرته وأبناء جلدته من جراء قدوم الأمريكان إلى وادي العيون وتقييهم عن الذهب الأسود. فهو يتمتع بإحساس فطري جارف يؤهله لاستشرف الحوادث والتنبؤ بوقوعها، فحين رزق بأخر أبنائه الذكور سماه "مقبل" وقال حين وصلته البشارة بمقدم الغلام:

— إذا أقبلت — أقبلت. ويقصد الحياة.

والصغير مقبل يحمل في طيات اسمه من الضديات والتناقضات العجيبة الشيء الكثير، مما ينبئ عن ذكاء فطري وهدس لا يخيب قد وهبه الهذال؛ فهو مقبل لأنه ارتجى أن يقبل عليهم بالخير والبركة وهو مقبل لأن الأمطار تلك السنة كانت غزيرة، ولكن شعورا غامضا اجتاح الرجل بأن أشياء أخرى سوف تقبل على الوادي، لا يعرف ما هي بالتحديد لكنه أحس بها. وقد تنامت أحاسيس متعب الهذال بأن شيئا خطيرا سوف يحدث لوادي العيون بعد أن سمع حديث ابنه فواز عن ضيوف غرباء نزلوا بمضافة ابن الراشد.

" — عند ابن الراشد ضيوف غرباء. " (70)

سقطت كلماته بين الجمر وأصوات الدلال، وظل أبوه يواصل عمله كأنه لم يسمع، فأضاف الابن: " — من الإفرنج ويتكلمون العربي " ( 71 ).

منذ هذه اللحظة بدأت متاعب البطل متعب الهذال، وحمل على عاتقه قضية من أخطر القضايا التي تتضمنها الرواية، وهي قضية الدفاع عن وطنه وأرضه ومحاولة تجنيب البادية اقتحام " العفاريت الكفرة " على حد تعبيره. لقد قال فيما بعد:

— لازم نعرف كيف نمنعهم من الوصول، وإذا وصلوا ندفنهم أو نهججهم ونلعن والديهم (72).

لقد بدأت مخاوفه تتحقق حين بدأ الغرباء " الأمريكان " ينقبون في الأرض هنا وهناك بمباركة ابن الراشد وأمير المنطقة اللذين أسكتتهما الدراهم وليرات الذهب. ولا ينبغي لحادثة اجتثاث الجارفات الأمريكية للنخيل من الأرض العربية من أعماقه أن تمر دونما التفاتة. إذ إن اجتثاث النخل من الأعماق يكتسب بعدا رمزياً يفضي بالضرورة في



عقل المتلقي في المجتمع الروائي إلى محاولة الأجنبي اقتلاع العربي من جذوره. وبمعنى آخر انتزاع العربي من هويته الوطنية والثقافية والدينية. وقد عبر الهذال عن ذلك بغير طريقة، لقد كان ما حدث فعلاً "مجزرة" على وفق تعبير السارد؛ وكان ثمّة إحساس واضح لدى الهذال بأن ذلك سيحدث. وأجدي مضطرة إلى اقتباس مقطع طويل لجلاء أحاسيس الهذال وعمق عذابه، وإيضاح مدى تعلقه بالأرض ومفردات الطبيعة؛ لأنّ الرجل الأسطورة يستحيل حناناً، وكبرياءه تستحيل دمعاً كماويا يحفر في الأعماق ويمزق نياط الفؤاد ويحرق الأكباد، وفضلاً عن ذلك يوضح الاقتباس القساوة التي عانت منها الأرض والأشياء، والحزن الذي هيمن على الناس يقول السارد:

"نظر إلى كل ما حوله وكأنه يودع الأماكن والأشياء، رأى سرباً من القطا يحوم. نظر إلى الرجال في المعسكر، امتلاً إحساساً بالنهاية، وما كادت تلك الآلات المجنونة تبدأ الحركة حتى صرخ صرخة حادة موجعة:

-حسافا.. حسافا... يا وادي العيون! (...)

التراكثورات وهي تهجم مثل ذئب جائعة على الأشجار وتبدأ تمزقها وترميها أرضاً الواحدة بعد الأخرى، ثم بعد ذلك تُسوّي بين شجرة وثانية، بين الساقية والأرض التي حولها، حتى إذا انتهت من مجموعة من الأشجار هجمت بنفس الضراوة والوحشية على مجموعة جديدة وبدأت تقتلعها. كانت الأشجار وهي تميل وتترنح، قبل أن تسقط، تصرخ، تستغيث، تولول، تجنّ، تنادي نداءً أخيراً موجعاً، حتى إذا اقتربت من الأرض هوت بتضرّع، وكأنها تحتج أو تريد أن تلتحم بالتراب من جديد، في محاولة لأن تتبثق، لأن تنفجر مرة أخرى".

"هكذا بدأت مجزرة وادي العيون، وهكذا استمرت حتى أتت على كل شيء، ومتعب الهذال الذي شهد بداية المجزرة لم يشهد نهايتها؛ لأن الرجال الذين وصلوا على صوت الآلات المجنونة، ووقفوا يرقبون ما يجري أمامهم، وبعد أن أفاقوا من الذهول الذي سيطر عليهم خلال الفترة الأولى، والتفتوا ورأوا ابن هذال، قال هؤلاء الرجال أشياء كثيرة شديدة الحزن، قالوا إنهم لأول مرة في حياتهم يشهدون رجلاً مثل متعب

الهدال بيكي. كانت دموعه تتساقط بغزارة، لكن بصمت أيضا. كان صامتا تماما. لم يتفوه بكلمة واحدة. لم يشتم... فقط كانت دموعه تنهمر، ولم يكن خجولا أو خائفا، ولم يكن فخورا أيضا، كان ينظر من خلال الدموع إلى الوادي كله، كان ينظر بصمت ويهز رأسه". (73)

وقد علق محمد الشوابكة على هذا الموضوع بقوله:

"وكلما بدأت عمليات الاجتثاث تتحقق زاد إحساس الإنسان بأنه جزء من الأرض. وأول محاولة هدفت هوية وادي العيون تحديداً كانت عندما هاجمت تراكورات الأمريكيين الأشجار واقتلعتها من جذورها. وكان هذا الهجوم موجهاً مباشراً إلى هوية المكان والإنسان الذي يسكنه" (74).

الأجنبي يقتلع شجرة فتثور نائرة العربي لأنه يحس ويعرف بالفطرة أن معنى هذا الاقتلاع ليس اقتلاع لشجرة وحسب. ويضيف الشوابكة في نفس الموضوع:

"ولأن الاقتلاع يشير إلى الوصول إلى الأعماق، إلى الجذور. فإن المحاولات لا تقف عند حدود السطح وإنما تتجاوزها إلى محو الهوية بشكل كامل. وكأنها معادية لوجود الإنسان وحياته. أما ردة الفعل فكانت جدّ قوية تتناسب مع الظروف الموضوعية التي رسمتها الرواية. وقد جسدها متعب الهدال كما جسدها مقاومة الطبيعة، فعناصر المكان تمتلك الكثير من أسباب الرفض، وقد صورّ الكاتب مقاومة الشجر والحجارة للاقتلاع تصويراً شعرياً مؤثراً؛ فقد كانت الجرافات تنهش الأرض بحقد، وكانت الأشجار تصرخ وتئنّ معبرةً بذلك عن تشبّثها بهويتها مقاومة كل محاولات الاقتلاع، وتحوّل كل ذرة من تراب المكان إلى صرخة مدوية في وجه القهر والاستلاب (...). أما تأثير هذا الاعتداء على الإنسان (كما ورد في الاقتباس السابق) فعميق يقف برهانا على ما يقال بأن حس المكان... حسّ أصيل وعميق في الوجدان البشري، وخصوصاً إذا كان المكان هو وطنُ اللفة والانتماء الذي يمثّل حالة الارتباط البدني المشيمي برحم الأرض- الأم، ويرتبط بهناء الطفولة وصبابات الصبا، ويزداد هذا الحسّ شحداً إذا ما تعرّض المكان للفقْد أو الضياع". (75).

وعلى الرغم من قساوة الطبيعة التي برع منيف في وصفها بدقة مستخدماً الوان التشخيص: السماء قريبة ثقيلة وكأنها قبة من رصاص الغبار الكثيف...، فإنّ الإنسان يرتبط بالأرض ارتباطاً عميقاً، وموقع حران، مثلاً، في منخفض من الأرض يشبه حضن الأم (76). ومرة أخرى جاءت ردة الفعل تجاه هذا الاقتلاع قوية تتناسب مع قوة الفعل. وقد بدأها بطلنا الأسطوري بالشتائم، وقد كان هو الوحيد الذي يجروء على الشتائم، والتعبير عن مخاوفه في مضافة الشيخ ابن الراشد (77).

ويعجب القارئ من بذاءة لسان هذا البطل، لكنها بذاءة مبرره. وقد تكون مغفورة لأنها مشفوعة بطيبة الرجل وخوفه على أبناء جلدته، لقد نعتهم بالكفرة وأبناء الزواني، ونقل أنهم سمعوه يصرخ:

"يا أولاد الزواني، يا أحجار القراني، سأنتقم منكم قبل أن ينتقم الواحد القهار (78).

إن هذه البساطة والعفوية والسرعة في إلقاء الشتائم تشي بالحرص الجليّ على هوية المكان والإنسان، ولكن النص لم يكشف عمق انتمائه صراحة، إلا بعد أن بدأت الملامح الأسطورية تبدو شيئاً فشيئاً، بطريقة تمكن القارئ من أن يتدرج في تتبع الأحداث التي تقضي إلى أسطوره الشخصية، وتأخذ هذه الأحداث شكل الاختفاء ثم الظهور بطريقة مفاجئة تتناسب بالضرورة مع أفعال الناس وطريقة تعاملهم مع الآخر وردود أفعالهم تجاهه. إذن تبدأ الملامح الأسطورية والملحمية بالظهور تدريجياً، ومنيف نفسه يعترف بذلك في تعليقه على روايته:

"يختفي متعب الهذال بما يشبه الأسطورة. يتحول إلى رمز وحافز رفضي وأمل غامض بمقاومة ما سيأتي - كأنه التعبير الخفي عن هواجس وتساؤلات مطروحة ومحاولة على المستقبل" (79).

لقد كان الخراب الذي حل في وادي العيون خراباً أسطورياً سلب من الناس براءة الحياة وحالتها الطبيعية المنسجمة مع الطبيعة نفسها، فأنتج هذا الاضطراب والتشتت حالات فردية تسمو على المؤلف العادي؛ ومن هنا ولدت أسطورة رحيل الهذال. ويعلق العتابي على هذه المسألة المتفرّدة بقوله:

"يُعدّ رحيل الهذال وعودته لأكثر من مرة أحد أهم الملامح الأسطورية في هذه الخماسية فقد أصبح الهذال أسطورة متعالية على الموت. أسطورة بحضوره وغيابه المفاجئ المتكرر الفاعل". (80).

إن أحد أهم الملامح الأسطورية للشخصيات هي: التعالي على الموت، فالموت لا يقدر عليها ولا يعد هاجسا مقلقا لها. ومن هنا يحق التساؤل لماذا يكون الهذال شخصية متعالية على الموت؟ إن الجواب في الرواية ذاتها وهو ما أكسب الهذال بعداً رمزياً منزاحاً عن المتواضع عليه:

"لكز ناقته فاهتزت اهتزازاً قوياً وهي تنهض. وبدأ متعب الهذال وهو يرتفع مثل خيمة ثم بدأ مثل غيمة، أما حين بدأ حركته السريعة فقد أصبح مثل طير. وبدأ يبتعد ويبتعد حتى تلاشى واختفى" (81).

خيمة فغيمة فطير، هذا هو التصوير الأسطوري لغياب الهذال. ثم كلمة تتلاشى. والتلاشي هو الفناء والانتها، لكن هل تلاشت الشخصية فعلاً أم بقيت؟ وهل بقاؤها وظهورها هو ظهور حقيقي جسداً وروحاً أم أن ما خلقة الهذال في نفوس الناس هو ما أعاد ظهوره بهذا الشكل الأسطوري؟

"تكمن قيمة الفعل البطولي هذا في كونه يمثل الفعل البطولي الفردي الذي يمثل الجماعة ويحرك روح البطولة والتحدي الكامنة في روح المجتمع رغم غيابه عنه". (82).

نعود ونقول: إن الهذال فرد في مجتمع. فعله فردي يمثل جماعة ربما لم تظهر الكثير من ردود الأفعال أثناء وجود الهذال في وادي العيون لكن غيابه واختفائه عن الساحة ترك المجال لظهور ردات الأفعال بشكل كبير، فقد كان هنالك بعض الردود التي نُسجت على نول الهذال، يقول العنابي:

"كان يمكن أن تغيب ذكرى الهذال حول ظهوره الأسطوري المتكرر، الذي خلق روح التحدي لدى العرب في حران فبعد مغادرته وادي العيون، كان يظهر في كل عمل بطولي أو أي نوع من المقاومة" (83).

ويبدو أن هذه الشخصية، في وقت لاحق، تجاوزت حدود الفردية وأصبحت قدوة، ولعل المعاني التي تحملها حلت في نفوس غير واحد من أبناء المنطقة، حتى أطلق الناس أحياناً اسم الهذال على كل من يقوم بفعله: " ظل متعب الهذال شبحاً يغيب ويحضر طوال فترة مد الأنابيب " (84). " أصبح متعب الهذال هاجساً يملأ حياة المعسكر " (85). " والناس في المعسكر أكدوا على رؤيتهم لمتعب الهذال وهو يطارد الجنود وآخرون قالوا إنه مفضي الجدعان " (86).

هذه الأمثلة من الرواية تدل على وجود متعب الدائم فهو لم يختف، وإنما حلت سماته في عدد من الشخصيات. ونعود فنقول: إن هذا الفعل الفردي لمتعب تحول فيما بعد إلى فعل جماعي مقاوم. استقى مبادئه من هذا البطل الأسطوري وأصبح متعب الهذال يمثل الكل، " حتى كأن المجتمع كله تعلم الدرس الذي ألقاه ابن الهذال من ضرورة المقاومة، وذلك من خلال إضراب العمال واشتباكهم مع شركة التنقيب عن النفط عندما فصل عدد من العمال " (87). وهكذا تستمر المسيرة والإضرابات التي شارك فيها جميع أبناء حران واستمر الفعل البطولي في التحدي والمواجهة حتى نهاية هذا الجزء (88).

أقول: إن منيفاً تدرج في تقديري منذ بدايات الرواية في خلق صراع من خلال اصطناع المشاهد. والمشهد كما هو معروف تقنية فنية يحاول الكاتب من خلالها تصوير الصراعات والكشف عن الرؤى والاتجاهات والأحاسيس والانفعالات، والكشف عن الملامح الثقافية التي يعبر عنها الشعور الجمعي وتراكم الخيرات والتجارب وهو ما فعله متعب الهذال، إن هذا التوجيه لهذه الأحداث الروائية يقودنا بالضرورة إلى تحليل أبعاد شخصية متعب الهذال دون أن نقطع بأن المجتمع العربي الروائي كله كان يمثل بُعد الهذال، أعني شخصية ابن الراشد التي كانت عوناً للآخرين؛ منطلقة من مقاصد مربية، الهدف منها الانتفاع السريع دون النظر، فيما يبدو، إلى ما سترتب على وجود الآخر من آثار سلبية على البنى الاجتماعية والفكرية للمجتمع.

إن شخصية الهذال في تقديري تمثل إحدى وجهات النظر تجاه الآخر وهي الرفض المطلق وليس منيف وحيدا على هذه الساحة في هذه المسألة بالذات وإنما سبق بمحاولات كثيرة، ومن منطلقات مختلفة أهمها رفض هيمنة الآخر. وإذا كان دافع منيف كما يظهر في مدن الملح هو حماية الذات والآثار من الاحتلال والهيمنة، فإن توفيق الحكيم في عصفور من الشرق رسم محسناً بصورة ترفض الآخر رفضاً مطلقاً ولكن لأسباب لا تخفى على أحد أبرزها الحكيم في روايته ويمكن إجمالها في رفض الروح المادية للحضارة الغربية. وهنا يكمن الاختلاف بين منيف والحكيم على عدة مستويات ففي حين يعيش محسن في باريس نفسها وينهل من حضارتها ويرفضها في الآن نفسه، فإن متعب الهذال يأتيه الآخر إلى عقر داره ولكنه لا ينظر إليه بوصفه حاملاً لحضارة مادية وإنما بوصفه مُحْتَلًا يسعى إلى استلاب الهوية واستثمار الثروة لصالح شعوبه وليس لصالح الشعب العربي من منظور روائي.

ولا أظنني ملزمة بأن أسرد الروايات العربية التي سبقت منيفاً ورفضت الغرب لأسباب متعددة ويكفي الإشارة إلى "جسر الشيطان" لعبد الحميد جودت السحار الذي اختلف إلى حد ما عن منيف ولكن الشخصيتين الرئيسيتين رفضنا الغرب لأسباب تتعلق بالهوية. إذ يتوجه بطل الرواية علي إلى "همبرغ" في ألمانيا مرتدياً عباءة الواعظ، مبرزاً مجموعة من التناقضات بين الشرق والغرب، لافتاً الانتباه إلى مسألة تشييء الإنسان وتحويله إلى سلعة تباع وتشتري. وقد حاول الكاتب أن يجعل علياً أداة لهداية أني -الفتاة التي تعرف إليها وهي تعمل في ملهى- لتجنب الانحراف الأخلاقي مُهدياً صاحبه تحفة من خان الخليلي كتب عليها عبارة دينية، وقد استطاع علي أن يغير من اعتقادات أني بيد أنه أخفق في تغيير سلوكها. لقد انتهى البطل إلى أن "الغرب مريض" (89) وأن الدين/ الإسلام هو العلاج الشافي لأمراض العصر، ولكن الكاتب اتجه إلى المباشرة والتقريرية، مما جعل عمله ضعيفاً إلى حد كبير.

ومنيف، رغم تعاطفه الجليّ مع الهذال في الرواية، يدرك في تعليق له على الشخصية في كتابه " الكاتب والمنفى " أن إيقاع الحياة المتسارع بعد تدفق النفط جعل من استمرارية الهذال أمراً مستحيلاً ويقول عن بطله متعب:

"متعب الهذال بطل العصر الماضي. لقد انتهى ويجب أن ينتهي أياً كانت العواطف التي نكنّها له، لأنه إنسان حقبة انتهت، وإذا كان لديه تشبثات وأحلام حاول من خلالها أن يمنع الحياة الجديدة في تدفقها أو أن يستعيد فترة ماضية، فإنه لن يستطيع ومن غير المجدي أن تستمر محاولاته، وأفضل شيء فعله أنه حمل أحزانه إلى أعماق الصحراء وانتهى هناك كجزء من الصحراء أو كجزء من فترة زمنية ماضية". (90).

ربما انتهى متعب الهذال كجسد لكنه ظل موجوداً كروح، وربما أصبح جزءاً من التاريخ، ولم يعد له مبرر للاستمرار - كما سنرى في الاقتباس التالي - إلا أن هذا التاريخ يظلّ محفوراً في الذاكرة، ذاكرة المقاومة والمحافظة على الهوية رغم تبدل الأزمان؛ لم ينس أحد متعب الهذال ولم تغب ذكراه. يضيف منيف متحدثاً عن متعب:

"ومتعب الهذال ذاته الذي كان كل شيء في وادي العيون، عندما كان وادي العيون، لم يعد له مبرر لأن يستمر بعد زوال هذا الوادي. وبعد أن عبر عن رفضه باحتجاج صحراوي لا يجدي إزاء التطورات الجديدة التي بدأت طريقها وتملاً بدويها الصحراء كلها " (91).

نعود ونقول: إن متعب الهذال مثل اتجاه الرفض المطلق للآخر. وطالما نتحدث عن هذا الاتجاه فينبغي الإشارة إلى رؤية واتجاه آخر من خلال المجتمع النفطي. وقد أشرت إليها مسبقاً يمثلها الأمير وابن الراشد والدباسي وآخرون، وهي كما ذكرت شخصيات كانت خير معين للآخر ليثبت وجوده. أي القبول المطلق دون النظر إلى ما يمكن أن يترتب على وجود الآخر من آثار سلبية، ويقترّب من هذا الاتجاه اتجاه آخر مال إلى الدعوة إلى الصبر والتريث لمعرفة ماذا يمكن أن تفضي إليه الأمور، ويؤمن بعض من مثله أن ما حدث إنما هو قدر من الله. وعلى الرغم من أن ابن النفاع يمثل المجموعة

التي تكره الأمريكي، فإنه بقي سلبيا ولم يقاوم. وهذا الموقف وإن بدا عقلانيا مقنعا إلى حد ما. فإنه يمثل من وجهة نظر الهذال والآخرين انتصارا مبدئيا لمجيء الأجنبي.

هكذا انتهى الهذال في أعماق الصحراء وهكذا بقي موجودا. لم يمت الهذال وكان أكثر حياة في أذهان تلك الشخوص التي خالفته ونصرت الغريب عليه، أي أنه بقي حيا عند كل شخص وقف في الجانب الآخر والطرف المقابل، عند كل إنسان مثل اتجاه القبول المطلق. أما كيف تم ذلك فسيأتي الحديث عنه حين نتحدث عن اتجاه القبول المطلق لهذا الجديد.

حين تقلب صفحات التيه التي تمثل مرحلة الصراع الأولى عند ظهور النفط، تتغير اهتمامك شخصية متميزة ترمز بطريقتها الخاصة إلى الانتماء إلى الأرض. وهي إن لم تظهر بشكل أسطوري، فإنها قوية الصلة ببطلنا الرئيس في هذا الجزء من الرواية. شخصية امتازت بكثير من صفات متعب الهذال وربما ارتبطت بها إلى حد ما بكثير من المواقف. إنها " أم الخوش ". تلك المرأة العجوز التي تنتظر الغائب: ابنها الوحيد الذي سافر ولم يعد. اختفى دون إنذار وبلا مبررات واضحة. حتى انتهى مجيء الأخبار التي تريح الأم. فأيقن كل من حولها بوفاة الخوش، يقول أحمد جاسم الحميدي: " يبدو انتظار أم الخوش بنظر الجميع في البداية انتظارا يائسا وعقيما ؛ لأنه انتظار للمستحيل، فالخوش بحكم الميت في نظرهم ولكن أمام إصرارها على الانتظار القاسي، يصبحون مثلها ينتظرون قوة خفية إلهية أو غير إلهية تقذف به إليهم " (92).

كانت أم الخوش تزداد أملا حين تأتي القوافل، أما إذا رحلت فكانت تدور الوادي منذ الفجر وحتى الغروب أو بعده قليلا وفي ذلك الطواف الذي لاينتهي تخاطب الكبار والصغار. تتحدث مع الأشجار والحيوانات، تسأل كل من يصادفها إن رأى الخوش أو سمع شيئا من أخباره (93). تبدو أم الخوش أحيانا مفعمة بالأمل، وتبدو أحيانا أخرى مثالا لليأس والإحباط، حتى غير ذلك من طباعها وسلوكها، وبدلا من أن تصبح مثار سخرية للآخرين، أخذت تحظى بالدعم والاحترام من الصغار والكبار، ويتعاطف معها الناس. ويستغرق السارد العليم في تحليله لأعمال هذه الشخصية ومسالكها على النحو



التالي: "وتستسلم فترة قصيرة لهذه النسوة، تضحك، تسافر، تحلم، ثم فجأة تجهش بالبكاء، كان بكاؤها حادًا مكتوما في البداية، ثم ما يلبث أن يصبح أقرب إلى الاستغاثة، حتى أن الإنسان لا يطيق أن يسمعه، فيترك الرجال المكان، أما النسوة والصبية فإنهم ينظرون إليها بدهشة ثم بحزن، وكثيرا ما كانت النساء يشاركنها في نحيب مكتوم، حتى إذا هدأت ران صمت ثقيل موجه، وإذا كان البدو، ووادي العيون بشكل خاص، لا يعرفون البكاء ولا يحبونه، ويستغربون كيف يبكي الناس أو لماذا، فإنهم حين يرون ذلك يصبحون أقرب إلى الضعف والحيرة ويغرقون في التشاؤم". (94).

أما إذا عدنا للحديث عما يقربها من الهذال فأهم صفة هي النبوءة بما سيحدث. فأم الخوش هي أول من تتبأ بحريق الوادي وخرابه. وإن لم يكن الحريق الذي تحدثت عنه بالمعنى الحقيقي إنما هو هذا الانقلاب في حياة الوادي الهادئ الذي يعد أكثر من حريق. لم تتبأ أم الخوش بهذه النبوءة إلا بعد أن رأت الأمريكان. صحيح أنها لم تكن لتميز جنس هؤلاء الغرباء ولا الغاية من وجودهم في الوادي إلا أنها، بحدسها، ربطتهم بقدم البلاء والحريق. وقد ربط سكان الوادي بكل صراحة بين الشخصيتين عندما لاحظوا ما بينهم من تشابه، فالهذال يكاد يُصاب بالجنون عندما يأتي ذكر "الشياطين"، وعامل الناس بطريقة غير مألوفة:

" لم يكن الرجل بهذا الشكل (بهمس الناس)... لكن "السودا" التي أصابت متعب الهذال لا أحد يعرف متى تخرج منه، ثم يضيفون: "أصبح مثل أم الخوش لا يمكن التفاهم معه أم الخوش تدرع الوادي من أقصاه، وقد بدت أكثر من أية مرة سابقة، مشعثة الشعر، شديدة الحزن والانفعال. وكانت تردد كلمات بدت غريبة لكل من سمعها " قبل حلول الحول تقوم القيامة تقوم بالوادي ويحترق " (95).

هذه النبوءة التي تعلنها " أم الخوش " عن القيامة واحتراق الوادي ليست مسا من الجنون وإنما هي جزء من الفضاء الروحي الذي يعم الوادي بكامله. وهذا الفضاء الروحي يتكئ على شيء دوماً، لذلك فإن أم الخوش تربط الحريق والقيامة، بابن الراشد، لأنه أهانها أمام ضيوفه الأمريكان " (96).

لم تكن أم الخوش تفرق بين هؤلاء الغرباء وابن الراشد في المعاملة. فما أن حلوا في وادي العيون حتى تنبأت بقيام القيامة واحترق الوادي وما أن حاول ابن الراشد إهانتها عندما حضرت لتسأل عن ولدها كالعادة:

— خذوا البلية من وجوهنا (97)

حتى جاءت النبوءة الثانية:

— سيحترق هذا الوادي.. وأنت أصل البلاء (98).

وحتى لا ادخل في شخصية جديدة هي ابن الراشد والتي سيأتي الحديث عنها لاحقاً نعود إلى أم الخوش وعلاقتها بمتعب الهذال. العلاقة بين أم الخوش والهذال قوية تمتد من الفضاء الروائي والتماهي المطلق والكلي داخل الحياة الجماعية إلى حس النبوءة فالقيامة التي نتحدث عنها أم الخوش يعود ليؤكد هذا الهذال (99):

— يقولون: يوم القيامة؟ اليوم يوم القيامة. يقولون إذا مشى الحديد على الحديد؟ اليوم رأيت الحديد يمشي على الحديد (100).

لم يكن هذا التناغم في الأحاسيس بين أم الخوش و متعب الهذال هو الوحيد؛ فلم يتوقف الأمر على هذه النبوءة بل تجاوزها إلى نظرة كل منها إلى هؤلاء الغرباء وتفكير كل واحد. صحيح أن نظرة متعب الهذال تبدو أكثر عقلانية وواقعية، لكن نظرة أم الخوش وإن بدت من باب المس والجنون وتتجاوز ذلك إلى مساحة واسعة من الخيال إلا أن كلتا النظرتين تصبان في سيل واحد هو الخوف من هذا الجديد الغريب، الخوف من المستقبل وما سيجمله معه. قضية أم الخوش هي الخوش ابنها الوحيد وقضية متعب الهذال هي وادي العيون. وأم الخوش تصر على أن هؤلاء هم قتلة الخوش، وكذلك متعب الهذال يرى أن هؤلاء ما جاءوا إلا لقتل الناس وتغيير معالم هذا الوادي الآمن وادي العيون.

الخوش جزء من الأرض وابن لها، وغيابه أو موته يعني تغييراً ما سيطراً على الأرض بما تحتضنه من قيم وعادات واعتقادات، وهنا يربط منيف بين الإنسان والأرض، والأرض بلا إنسان وتجربة إنسانية شيء لا قيمة له، وكما يرى بعض

الدارسين: " وكل مكان مدان ما لم تجر عليه خيرة الإنسان" (101) ؛ وإذا كان الأمر على هذا النحو، فإن أم الخوش متناغمة مع الهذال الأب فالخوف من كليهما إنما هو خوف على الأرض والإنسان:

" لقد تأكدت أم الخوش بعد رحيل الأجنب أنهم ما جاءوا إلا ليلغوا الوادي أمرا متعلقا بالخوش. ولهذا السبب أبعدها عنهم، لم يتركوا لها فرصة لكي تسألهم وتعرف، وإلا لماذا بدا الفرع على وجوههم عندا اقتربت منهم في مضافة ابن الراشد، وصمتوا حين سألتهم هل قتلوه وجاءوا لكي يصالحوها على دمه؟" (102).

بعد أن تأكد لأهل الوادي أن أم الخوش قد جنت ولم تعد تعي ما تقول وحتى بعد أن بدلوا معاملتهم لها ظل الهذال هو الأكثر عطفًا وقربًا منها. لذا فبعد أن رحل الهذال ظهر افتقاد أم الخوش له من خلال الأسئلة:

- يا جماعة الخير يا أهل الوادي نسيت أسألكم عن متعب أبو ثويني " وين متعب (103).

" وانكفأت أم الخوش على نفسها. الساهرون كانوا يسمعونها تحدث نفسها. لم يفهموا شيئًا مما كانت تقوله ولم تعد إلى توجيه الأسئلة أو انتظار إجابة أحد. " (104) يقول الحميدي معلقًا على علاقة أم الخوش بمتعب الهذال:

" فكلامها غير مفهوم بالنسبة للآخرين. هو اقترباها من الهذال الرمز. الحقيقة فهي وحدها تملك القدرة على الوصول إلى الحقيقة، لأن العلاقة بينها وبين الهذال هي علاقة من العالي. بحيث لا يستطيع الآخرون فهمها أو الاقتراب منها. فالسن والنبوءة (والروح) والموت في المكان مع الحياة القديمة، والرحيل عن المكان مع رحيل الحياة القديمة، كل تلك العناصر تتداخل داخل الوحدة الأساسية التي هي وحدة الهذال مع الطبيعة" (105).

ربما يؤكد هذه المسألة نهاية الاثنين: الهذال شخصية أسطورية سمت بفعلها وعمق أحاسيسها على بعض الناس، وكانت نهايتها الغياب، وأم الخوش أدركت بذلك فطري غامض أن شيئًا ما سيحل بالوادي، وكانت نهايتها الموت، وطريقة موتها تحمل

بعدا رمزيا يتصل بالأرض، إذ استيقظ الناس وإذا بالمرأة منكفئة على وجهها تبدو كأنها دُفنت في أعماق رمل الصحراء، ولعلها بذلك تؤكد معنى الحلول (106) والاتصاق والاتحاد بالأرض الذي رأيناه متجسداً عند الهذال في مقاومته للآخر. والحقيقة أن هذه المسألة تتكرر عند منيف في غير عمل روائي؛ فعساف في رواية " النهايات " يُسمى مجنون القرية، ولكن الأحداث المتتامية فيما بعد تجعل منه أسطورة، فيتحول فيما بعد إلى شخص استطاع أن يستعيد وعي الناس المفقود بالأرض وبقيمة أنفسهم وبضرورة المحافظة على التوازن بين الإنسان والطبيعة، أخذوا يبجلونه ويعتزون به وكانت جنازته أخادة قدمها الكاتب بطريقة رمزية يقول عنها جبرا إبراهيم جبرا إنها أفضل تصوير قرأه لجنازة (107). أما موت عساف فكان في رحلة صيد مع مجموعة من الناس، تهب عاصفة صحراوية، وفي اليوم التالي يعثر على عساف ميتا ونصف جسده في الرمل وفوقه كلبه الذي يحرسه. أقول ذلك لأن هذا الموت يشكل أيضاً اتحاداً في الأرض، وتشبهاً بها.

إن ما يقابل الرفض التام المطلق هو القبول بدرجات متفاوتة لهذا الجديد. وإذا كان متعب الهذال هو المثال على الرفض لأسباب سبق ذكرها، وإذا كان متعب الهذال ليس فرداً بل هو مجتمع، فإن الاتجاه الآخر أخذ أكثر من شكل وباركته أكثر من جهة. الجهة الأولى هي الجهة الحكومية ممثلة بالأمير والطرف الآخر هو المواطن العربي في المجتمع الروائي ممثلاً بابن الراشد وشعلان ابن متعب الهذال إلى حد ما.

إن الحديث عن هذه الفئة الباحثة عن المصلحة العامة تجعلنا نتحدث عن مواقف مغايرة ومتناقضة تماماً لما كانت عليه الفئة الأولى، الفئة الراضية: فإذا كان متعب الهذال مثلاً ونموذجاً للالتحام بالمكان وشخصية تجسد بكل شفافية الحب والانتماء لكل ما هو أصيل. فإن ابن الراشد كما يقول الشوابكة: " كان ممن فقدوا هويتهم وصبغتهم التي اكتسبوها من ارتباطهم أصلاً بالمكان... تعاون مع الأجنبي وأمعن في القطيعة مع الأرض التي عاش عليها. وكذلك شخصية شعلان بن متعب الهذال، وتشير الرواية إلى أن اندغام الإنسان في الجديد وانتماءه إليه سيفقده جزءاً من ذاته، ولكن ذلك لا يعني

محاربة القديم والتقدم العلمي إلا بمقدار ما يسبب استلاباً للذات وانسلاخاً عن الأرض". (108).

أما أساس هذا الموقف ورأسه فهو الأمير الذي قابل كل الذي يجري بيروود مصطنع وأعصاب هادئة؛ فعندما تجمع مجموعة من رجال وادي العيون بغرض محادثة الأمير بهذا الذي يجري في الوادي عرف ما في نفوسهم من حديث فتلقاهم بالطمأننة، مستبقاً ما يمكن أن يحدث، محاولاً تسويغ مجيء الأجنبي:

— ستكونون يا أهل وادي العيون أغنى الناس وأسعدهم وكأن الله لا يرى غيركم وتغيرت لهجته: لقد صبرتم وتحملتكم كثيراً... الشهادة لله، أما الآن فسوف تعيشون وكأنكم في حلم، وسوف تتحدثون عن الأيام القديمة وكأنها سألقة من السوالف... وعاد إلى لهجته الأولى:

— والخير، يا جماعة الخير، إذا عمّ عمّ (109).

لقد عرف كيف يباغتهم وكيف يدخل إلى نفوسهم. هذه المقدمة من الكلام وإن كانت غامضة بعض الشيء إلا أنها تسعد النفس وتتحو بها إلى الطمع والسكوت عن كل ما يحدث. ورغم هذا لم يسكت الرجال وعلى رأسهم بن الراشد رغم ما آتاه هذا الكلام من حيرة وعدم فهم فقد واجه ابن الراشد كلام الأمير برد ما جاء ليقوله للأمير بقدر ما كان موجهاً إلى الآخرين، ورغم ما اعترى جوابه من رهبة وتردد إلا إنه قال:

— أنت تعرف يا طويل العمر، المال ما هو كل شيء في هذه الدنيا قبل المال، العرض، الأخلاق، العادات التي تعودنا عليها (110). وما كان من الأمير إلا أن أطلق ضحكة مجلجلة ارتسمت على أثرها علائم الحيرة على الوجوه وكأنه بضحكته تلك يخبرهم بأن هذه الأمور تهون وتسهل مقابل المال والذهب والخيرات. وفوق ذلك طلب منهم تقديم كل مساعده يحتاجها هؤلاء الأمريكان بحجة أنهم ما جاءوا إلا للمساعدة. وحين سأل ابن الراشد عن نوع المساعدة المقدمة ما كان من الأمير إلا الإجابة الصريحة بقولة:

— تحت أرجلنا يا ابن الراشد، بحار من النفط، بحار من الذهب والخويا جاءوا ليخرجوا النفط والذهب (111).

إن منطوق الأمير يكشف في بنائه السطحي عن وعي ما بالقيمة المادية التي سيوفرها تفجّر النفط، وحتى لا يبدو التحليل منحازاً إلى السواد الأعظم من الناس، فإني أرى في خطاب الأمير سعياً لاستثمار خيرات الأرض من أجل التطوير، ولاسيما أن الأمير يدرك أنّ المدّ الغربي القادم لا يمكن تجنبه؛ فمن الأولى والحالة هذه القبول بالأمر الواقع وإفساح المجال للشركات الغربية للتقيب عن النفط الذي يشعر الأمير بأنه سيحوّل الصحراء إلى مدن كبيرة ويدخل المنطقة بكاملها عالم العصر الجديد. بيد أن خطاب الأمير حتى هذه اللحظة جاء ضبابياً لا يحل ولا يفسّر ما سيحدث، يعرف إنه يخلو من التنبؤ بما سيطرأ من تغييرات معنوية تصيب البناء الاجتماعي فكلمات مثل: " تحت أرجلنا بحار من النفط... بحار من الذهب " إنما تكشف عن طمع بالثروة التي ستعمل ضرورة على تغيير الحياة المادية، أما ما يواكب هذه الثروة النفطية من قيم معنوية، وما يواكبها من انفتاح سريع على العالم، واستقبال لا مندوحة عنه للمنتجات الغربية المادية والروحية؛ مما سيؤثر سلباً إن لم يتببه له الناس - فكلها أمور لم يلتفت إليها الأمير، ولم يكن قادراً على وعيها. فضلاً عن ذلك تجدر الإشارة إلى أن النظام السياسي القبلي المسيطر كان يفوض الأمير أو الشيخ مسؤولية اتخاذ القرار فيما يتعلق بمصائر الناس، وإن كان بعض الناس أعمق وعياً منه بما ستؤول إليه الأمور، وإذا كان منيف يعترف صراحة - كما رأينا - خارج السياق الروائي، بأن متعب الهذال جزء من التاريخ وأنه يجب أن يموت أو يختفي، فإن منطوق الأمور يتطلب أيضاً القبول بالنفط لعلّه يسهم في بناء الدولة المعاصرة. لكن الوعي المقابل لذلك، والذي قبل بعض الأمور على مضض، يرى في الجديد خطراً على الأخلاق والعرض ومنظومة القيم، والحقيقة عند هؤلاء أن " النفط " رأس البلاء، وما جاء هؤلاء الغرباء إلا من أجله والأمير بدا وكأنه المستفيد الأول من هذا الجديد المدعو " النفط ". فهذه الحماسة وهذا الاستعداد الكامل لتقديم كل ما فيه خدمة الأمريكيان وهذه اللامبالاة لما ستؤول إليه

الأمر وما سيأتي مع النفط من قيم- إنما يدل على ضعف انتماء وقلة وفاء للمكان، والأكثر من ذلك الخوف على السلطة والمكانة. فلو لم يبارك الأمير هذا التقييد فلن يسلم، ولن يتركه الأمريكان وشأنه، ومع أن الأمريكيين لم يتعاونوا معه ليتقبل هذا الجديد، فإنه كان من أشد المؤيدين وخير عون لهم لئتمكنا من السير قدماً فيما جاءوا من أجله.

لم يكتفِ الأمير بهذا الموقف فلم يكن يريد أن يبقى في نفوس الرجال شيء من ريبة. فبقي يحوم حول نفس الأسلوب. يأتي الرجال من حيث تؤكل الكتف فبالإضافة إلى إغرائهم بالنقود أحس انه يجب أن يدعم ذلك برفع مكانتهم وإعلاء جانبهم، وإن لم يكونوا في نظره بهذا المستوى. إنه بمعنى آخر يحاول تغيير المستقرات بطريقتين: الأولى: تغيير في المواقع الاجتماعية؛ فالمعارض لهذا المشروع يجب أن يتراجع من حيث المرتبة الاجتماعية؛ ومن هنا ستفرز قيادات اجتماعية جديدة وتزول قيادات تقليدية، بقطع النظر عن الكفاءة والأصالة. والثانية: تبشر المساندين بالغنى، أي شراء الناس بوسائل مادية وربما يكون ذلك على حساب منظومة القيم الاجتماعية. لم يكن منطق الأمير ومن يشايعه مقنعاً للكثيرين ولا سيما متعب الهذال؛ فالأمير يعزو السكن في هذه الأرض إلى حكمة صاحب الجلالة الذي كما يرى - كان يدرك أهمية هذه الصحراء وما فيها من خيرات دفيئة، فعندما سأله ابن الراشد:

— وهذا الذهب في وادي العيون يا طويل العمر؟

(كانت إجابته مثيرة؛ لأنه جعل امتلاك الأرض هبة ومنة):

— في وادي العيون، وفي كل مكان من هذي الأرض المباركة، وصاحب الجلالة عندما انتزع هذي الأرض بحدّ السيف، وحارب الأعداء والكفار، كان يعرف من أجل أي شيء يحارب.

قال متعب الهذال ببرود وتحذراً:

— حنا اللي حاربنا بسيفونا أخذنا هذي الأرض شبرا وراء شبر.

تضايق الأمير من هذا التعريض، وبتلك اللهجة قال متجاهلاً كلام متعب الهذال:

— بعد ما من الله علينا بالنعمة لازم نشكره، لا أن نخلق المشاكل، ونقول: فلاني وتركاني.

وتغيرت لهجته وتابع:

— أنتم كبار وأعقل أهل وادي العيون وواجبكم أن تسهلوا عمل الأصدقاء وتخدموهم بعيونكم — وإن شاء الله ما تحل السنة الجديدة إلا والفلوس لأذانكم(112).

كانت هذه الكلمات كافية لتسكت أعند الرجال إلا متعب الهذال الذي بقي متمسكاً بموقفه لم يتحزح عنه رغم كل الإغراءات. لكن غيره من الرجال ما كان منه إلا المباركة والموافقة على كل ما قاله الأمير فوجود كل هذه الإغراءات لم يبق للرجال إلا الخضوع والاستسلام لطلبات الأمير، قال ابن الراشد:

— حنا مع الحكومة، يا طويل العمر:إلي تختاره الحكومة فيه خيرة الله ونوافق عليه... فإذا كنتم ناوين تأمين الماء وحفر بيار جديدة وتوفرون للبدو والمسافرين والبساتين الماء، نسد عيوننا عن النصارى وما لنا شغل بهم ولا بينا شي (113).

وظهرت مداخلات من رجال آخرين أمثال سالم المكتوم وعبيد السويلمي كلها تبارك وتؤيد كلام الأمير. وبتخصيص ابن الراشد بالحديث يلاحظ أنه منذ البداية كان من أنصار الأمريكان ومن أكبر المؤيدين لهم، والمساندين لهم رغم ما تخلل هذا الموقف من تراجع في بعض الأحيان في الدفاع عنهم، حيث لم يكن هذا التراجع لقناعات في نفس ابن الراشد إنما لأن الجو العام كان جواً رفض واستنكار. فلم يكن بإمكانه الوقوف وحده في الساحة في وجه قومه وأهله وهو في نظرهم كبيرهم وعاقلمهم، وهو القدوة لهم. " وابن الراشد الذي بدأ مستعداً أول الأمر لأن يدافع عن هؤلاء، ويؤكد بطرق شتى أن الأمير أرسلهم، وأنهم أصدقاء جاءوا للمساعدة، لم يعد متحمساً للدفاع" (114).

بدا موقف ابن الراشد، في البداية، ضعيفاً في الدفاع عن هؤلاء فأثر السلامة وأخذ برأي الجميع. الجميع قالوا أن مكانهم ليس وادي العيون بل مكان آخر في الصحراء:



" بدأ ابن الراشد محرّجا، إذ لا يستطيع أن يدافع عنهم كما فعل في البداية. كما لا يستطيع أن ينتكر لقيم الضيافة قال لينهي الموضوع: القول قولكم، الفلاة أطيب والله يلعنهم ويلعن ساعتهم والحمد لله خلصنا منهم" (115).

ولكن بعد زيارة الأمير وما جرى من حديث يملؤه الإغراء وبعد أن ثبت تأييد الحكومة لهؤلاء الغرباء وبعد أن رأى ابن الراشد كيف اقتنع من معه من رجال — باستثناء متعب — بضرورة وجود هؤلاء. بدأ ابن الراشد بالكشف الصريح عن موقفه منهم، فهو لم يكن ليهتم حقيقة بالأرض والمكان، لم يكن وادي العيون ليثير في نفس ابن الراشد ما يثيره في نفس متعب. كان ينتظر أن يجد تأييدا ممن حوله حتى يؤكد موقفه. وما أن وجد هذا التأييد من أمير المنطقة الذي لا يستطيع أحد أن يخالفه ويجادل فيما يقول، حتى شعر بالأمان من أن موقفه سليم لا يستطيع أحد الاعتراض عليه. لم يكن ابن الراشد منسلخاً عن أرضه فقط، إنما أجبر فيما بعد أهل الوادي على هذا الانسلاخ، لم يهمله أحد ولم يحسب لأهل الوادي أي حساب. لا بل على العكس كان أول المساندين والمؤيدين لفكرة ترحيل أهل الوادي عنه ولم يكن مؤيدا وحسب، بل عمل بكل جهد لديه على تهجير أهل الوادي وخلعهم من أرضهم مع خلع كل شجرة في تلك الأرض.

لم يبق في الوادي إلا ابن الراشد وشعلان ابن متعب الهذال. شعلان الذي كان أكثر انسلاخاً من ابن الراشد عن كل ما يمت بصله للماضي: للأرض وللمكان. شعلان الذي لم يبق في الوادي ليدافع عنه أو ليحاول حمايته أو ليتشبث بأراء والده الذي رحل. لم يبق إلا ليقبض التعويض مقابل سكنه وأرضه، إلا ليأخذ ثمن هذا البيع الذي باعه، لم يبق إلا ليعمل في الشركة الجديدة شركة النفط، التي تأسست في وادي العيون. " انزرع شعلان في وادي العيون ليس كالنخيل الذي كان يملأ الوادي فيما مضى من الأيام، وإنما مثل الأعمدة الحديدية التي تغرس في كل مكان" (116). استقرّ شعلان في أرضه ليتخلى عنها لا يدافع عنها، مكث فيها ليغير معالمها، ليغير النخيل بالأعمدة، ليغير التراب بالأسمنت، ليغير الأرض بالشركة.

لقد انغمس شعلان في الحياة الجديدة بشكل كبير، حتى أنه سارع لتعلم اللغة الإنجليزية ليستطيع التأقلم مع هذا الجديد دون عقبات، كان ممن تقبل تلك الحضارة بشكل كبير واستوعبها بكل ما فيها وانخرط فيها وكان لم يكن له ماضٍ . كان شعلان مثل مصطفى سعيد في موسم الهجرة إلى الشمال لقد جعله الطيب صالح أنسانا ليس فقط سريع التقبل لقيم الآخرين بل وبتشربها تشرباً كاملاً. لكن الفرق أن مصطفى سعيد هو الذي ذهب إلى الغرب وشعلان أتاه الغرب إلى عقر داره.

وجد مصطفى سعيد في الغرب مكاناً ملائماً لنزواته وطموحاته التي لم يكن أحد ليحاسبه عليها في ذلك الغرب. أحب مصطفى سعيد الغرب رغم كل ما سببه له من ألم وضياع. كذلك شعلان فقد أحب عمله الجديد وموقعة الجديد رغم أن هذا الجديد جاء على أنقاض ماضٍ ما كان يجب أن ينتهي بهذه الطريقة. شعلان نسي كل الماضي، نسي وادي العيون وأشجاره حتى متعب الهذال الوحيد الذي كان يربطه بوادي العيون مع الزمن تلاشى واختفى ليس فقط كوالد لشعلان إنما كاسم يرتبط باسمه، فاسمه لم يعد شعلان بن متعب الهذال، بل أصبح شعلان الشركة، استبدل شعلان باسم والده اسم الشركة، وعندها لم تعد له أي صلة بالماضي. " حتى اسمه في المرحلة الجديدة تغير، أصبح شعلان الشركة وفي أحيان أخرى شعلان الأميركاني، بدل شعلان بن متعب الهذال " (117).

وزيادة على ذلك فلم يكتف بهذا، بل قام بما قام به ابن الراشد الذي لم يكتف بتخليه عن أبناء جلدته بل عمل على ترحيل أهل وادي العيون، كذلك فعل شعلان إذ عمل على محاولة إعادة بعض من رحلوا، وكما قلت، لا ليتمسكوا بالأرض ويدافعوا عنها، بل ليزيد من عدد الناس الذين باعوا وادي العيون وتخلوا عنه. وقد أثرت هذه المسالك على نفسيته، ربما دونما شعور منه، وبدأ يتخيل، فنتيجة لخيانة شعلان لو والده وأرضه، بدأ يرى أباه في المعسكر، رآه أكثر من مرة وفي أكثر من مكان في المعسكر؛ الأمر الذي أصابه بالمرض أو ما يشبه المرض، وإنما جاء ذلك نتيجة شعور

خفي بالذنب حتى أصبح الوهم لديه حقيقة كما يقول منيف " إنه يتحدى الخوف ويتحدى الوهم، لأنه متأكد من وجود أبيه ولأنه يراه " (118).

يعلق يوسف ضمرة على هذا الذي أصاب شعلان فيقول: " تكتشف أن شعلان لم يكن مجنوناً أو مصاباً بأي مرض نفسي فإذا رجعنا إلى موقف متعب الهذال من الأمريكيين القادمين إلى وادي العيون، هذا الموقف الذي يعيه شعلان والآخرين بشكل جيد، وطمسه في أعماقه عند لجوئه إلى العمل في شركة الحفر الأمريكية في وادي العيون، لوجدنا أن العمل نفسه في الشركة المعادية أيقظ عند شعلان تلك القيمة الكامنة في أعماق شعلان ولا نقول في " اللاشعور " الذي لا نؤمن به بقدر إيماننا بالشعور الكامن، الذي ينشط بفعل مجموعة عوامل في ظروف نموذجية. وحين تستيقظ القيمة في أعماق شعلان تحدث الرؤية لوالده متعب حول المعسكر وفي المعسكر نفسه، لكن شعلان يعاود كلمات تلك القيمة حين يواصل العمل في الشركة بفضل الإجراءات الأمريكية، وهنا لا يعود متعب الهذال للظهور أمام شعلان" (119). إذن لم يظهر متعب الهذال لولده إلا لشعور كامن لديه بأن ما يقوم به لا يرضي أباه ولكن ذلك لم يدم طويلاً؛ لأن هنالك ما هو أهم. المال والحياة إن العمل في تلك الشركة مضافاً إليه التفكير في المستقبل جعل شعلان يقاوم هذا الصراع الداخلي ويغلب المصلحة الشخصية على المصلحة العامة وأهمها مصلحة والده متعب الهذال.

هكذا رسم منيف صورة للأرض العربية قبل وبعد النفط. هكذا نقل لنا منيف شكل المجتمع العربي الروائي قبل ظهور النفط، كيف كان يعيش؟ وكيف كانت حياته؟ وهكذا بعد أن جاء النفط كيف أصبحت الحياة؟ استطاع منيف أن يرينا أمثلة كثيرة على ردود الأفعال وكيف أنها انقسمت إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول القسم الراض ويمثله متعب الهذال، وقسم متقبل تماماً يمثله ابن الراشد وشعلان بن متعب الهذال. وقسم ثالث لا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء، بل وقف متفجعاً ينتظر أن يرى إلى ماذا ستؤول إليه الأمور. ومع ذلك فإن هذا القسم لم يظل على حياديته فأصبح إما مع مؤيد أو مع معارض. وقد حاولت أن أوضح جميع ردود الأفعال من خلال الحديث عن شخصيات

اتخذت ردة أفعال واضحة تجاه ظهور النفط. فحاولت توضيح ردة فعل كل شخصيه من خلال حديث موجز عن كل شخصيه مع تحليل بسيط لسلوكها وطريقة تفكيرها. وهو ما توضحه الرواية لتستطيع الحكم على كل عمل ينتج عن هذه الشخصية. لقد جاء التركيز في هذا الموضوع على جزء " التيه "؛ وذلك لأن " التيه " هو الجزء الذي يمثل هذا الموضوع بجلاء ووضوح. ففيه ظهر النفط وفيه كان ثمة وصف للمنطقة قبل النفط وربما أن الاسم وحده دليل أكيد على عظم القضية التي يحملها هذا الجزء. فالتيه ليس ضياعاً فقط وليس فقداناً للطريق حسب، إنما قد يعني فقدان التفكير السليم. فالتائه قد يسير في طريق معروف ولكنه لا يعي ذلك وربما العكس فلا يستطيع أن يقرر أيبقى حيث هو أم يبقى مستمراً في سيره.

أما سائر النصوص الروائية في هذه الدراسة فلم تلتفت إلى ردود الأفعال الأولى، وإنما استغرقت في تصوير الحياة العربية بعد تدفق النفط.

## الفصل الثالث

### الاغتراب والازدواجية

#### 1.3- الاغتراب

تعددت الأدبيات التي تعالج مسألة الاغتراب مفهوما وأسبابا ومظاهر ونتائج، واختلطت في كثير من الدراسات المظاهر والنتائج بالأسباب، وغدا التمييز بين هذه المفردات بحاجة إلى التأنى؛ فرأت بعض الدراسات أن الاغتراب يشير إلى العزلة التي يُعانيها الإنسان وهو في وطنه، ورأت أخرى أنه انعدام السيطرة واللاقدرة والتخارج من الذات، وذهبت بعض الدراسات إلى أن من أبرز أسباب الاغتراب انقلاب الموازين والمعايير، وأشارت إلى ما يرافق ذلك من مظاهر القلق، والأرق، والاكتئاب والشعور بعدم التوازن بوصفها نتائج لأسباب متعددة. وليس من شروط هذه الدراسة تتبّع هذه الظاهرة والتحديد في الأسباب والمظاهر والنتائج المتعلقة بها إلا بمقدار ما يضيء جوانب النصوص الروائية قيد المناقشة.

تشير " قدح من نפט" هذه المسألة بشكل مبسط، ويبدو الاغتراب بوضوح في بحث الإنسان عن إنسانيته، وسعيه للتصالح معها والانسجام في التعايش معها، وتشير الرواية إلى ضياع الإنسان واستلاب إنسانيته؛ نتيجة تدفق النفط، يقول أبو عرب - أحد شخصيات القصة - : " لقد تحولنا إلى رقيق أبيض للذهب الأسود" (120)، ويتجلى الاغتراب أيضاً في الانفصال عن الواقع والآخر والذات، ومن ثم الإحساس بالوحدة والقلق وفقدان القيم والمبادئ: " ويركبه قلق الانتظار، وتمنى لو كان يقف إلى جانبه صديق أو رفيق أو أي أحد من السابلة، يقتل معه عقارب الوقت، يثرثران؛ حيث لم يصنع له اللعب بحبات مسبحة الفضية شيئاً... " (121). تتوحد الشخصية وتشعر باغترابها عن كل ما يحيط بها، ويعكس ذلك حياة الضياع للفرد، وتتعدد وجوه تعامله

مع نفسه ومع الآخرين، حتى تتقرم ذاته وتضمحل ملامحها: "انعدمت الرؤية أمامه فلم يكدر يعرف ماذا يريد وماذا ينبغي ان يفعل وصار يعاني من التوزع والشتات، ويعيش حالة هم فريدة" (122)، لم تعد الحياة ذات معنى يثير اهتمام الفرد، وكما أن الزمن يفنقر إلى المعنى، تفنقر الحياة إلى المعنى: "أقنعها بأنهما لا يخضعان إلى زمن ميكانيكي... فالوقت لا يعني شيئاً هنا" (123). وهذا يعني أن أفعال الفرد لم تعد تقود إلى نتائج مفيدة تتناسب والجهد المبذول. ويعرض النص صورة قاتمة لعلاقة الإنسان بالإنسان، وعلاقته بالسلطة، ويلجأ إلى إدانة المجتمع بقواه المختلفة بوصفه سبباً لما وصل إليه الفرد من حالات الاستلاب؛ إذ يلجأ الفرد إلى الاستسلام واليأس أكثر من ميله إلى الرفض والتمرد: "فالإنسان في العالم الثالث مجرد دماء تلغ فيها القطط أو جثة تفتح شهية كلاب الصيد، وفي أحسن الأحوال سعدان مدجن يقوم بواجبه على حبل السيرك، هو فعلاً كذلك ما دام المحقق يصف أخاه بأنه سافل" (124). ومن مظاهر الغربة فقدان الإنسان للانتماء؛ إذ يتحول إلى حيوان أو شيء، ويشعر بالدونية؛ لأنه غير قادر على التغيير أو إرضاء الذات، يرى "نفسه الآن مثل الصرصار الذي يزحف إلى أنية الطعام.... أو مثل ثور" (125)، وهذه التشبيهات تظهر الإحساس بالدونية وعدم القدرة على الفعل، ونمو مشاعر الكبت وسلب الحرية في القول والعمل والمشاركة والتخطيط والمعارضة، فيرى "أن العالم مقسوم إلى قسمين قسم وراء القضبان حدائق الحيوانات والآخر خلف قضبان السجن" (126).

أما رواية هاني الراهب فتعطي الأهمية الكبرى للقفز والطبقية والازدواجية، بيد أن البناء العام للنص يشي باغتراب الإنسان عن عصره، واكتهافه في أحيان كثيرة في قيم الماضي، وهو ما سيناقش في فقرة الازدواجية، وإذا تحدثت النص عن هذه المسألة فإنه - كالعادة - يلجأ إلى التقريرية: "بعد مئات السنين يطع علي النفط فتغرق فطرتي. أغترب عن عصري ولغتي" (127).

ولعل "مدن الملح" تسهم إلى حد كبير في بيان أسباب الاغتراب ومظاهره بأسلوب يعول على الوقفات والتحليل المطول للأماكن والشخصيات. وابتداء أقول إن

الإنسان اكتسب عند منيف سمات المكان الذي يعيش فيه، وهذه الصفات ميزته عن الناس في أي مكان آخر. حيث نلاحظ أن الإنسان عنده يتماهى مع المكان ويتألف معه وينطبع بسماته؛ لذا نجد أن أي تغير يطرأ على المكان ينعكس مباشرة على صفات البشر في ذلك المكان؛ لأن التغير الذي يطرأ على البيئة الجغرافية تتعكس آثاره في تحولات وتغيرات نفسية واجتماعية. كما أن ما يطرأ على وسائل استغلال موارد هذه البيئة من تطور يتجسد في إحداث تغيرات في الحياة الاجتماعية، وآية ذلك أن حياة المجتمعات البدائية والمتأخرة والمتخلفة تشكل بظروف البيئة الطبيعية ( 128 ).

وحيث تغيرت الأمكنة في روايات منيف انعكست آثار تغيرها على البشر الذين يعيشون فيها. وتجلت آثار التغير في طباع البشر ونفسياتهم وتفكيرهم وعرى العلاقات الاجتماعية وتجريدها من مضمونها الأخلاقي واغتراب الإنسان عن مكانه ورغبته في تدميره.

إنه وادي العيون....

هكذا بدأ منيف التيه. وادي العيون تلك البقعة الخضراء الجميلة وسط الصحراء القاحلة، حتى ليقول منيف: " ليس بينها وبين ما حولها أية صلة " ( 129 ). هذا المكان لم يكن بمعزل عن البشر وحياتهم بل كان فيه سكان تعودوا عليه حتى أصبح لشدة جماله مألوفاً لا يثير الكثير من التساؤلات. هؤلاء البشر كانت لهم خصوصية تميزهم عن سكان المناطق الأخرى وهذه الخصوصية استمدوها من خصوصية المكان الذي يعيشون فيه. فمكان مثل هذا لا بد أن يمتاز أهله عن أهل المناطق الأخرى، وأهم ما يميزهم هو شدة ارتباطهم بالمكان وشدة تعلقهم به، وانتمائهم لمفرداته الطبيعية والاجتماعية، نقرأ في الرواية:

" سوف يقولون إن هذا الوادي. بالنخيل الذي يملؤه وبالمياه التي تروي الناس الذين يعيشون حوله، والتي توقف المسافرين أياماً لكي يستريحوا ويتزودوا بما يحتاجون إليه ثم يواصلون رحيلهم بعد ذلك ربما إلى أماكن أفضل. إن هذا الوادي في هذا المكان من

الأرض لا غنى عنه ولو لم يكن موجوداً لما كان هنالك بشر أو حياة ولما كانت هناك طريق أيضاً ولما جاءت إليه القوافل" (130).

هكذا هو وادي العيون في نظر أهله وهذه هي خصوصيتهم التي استمدوها من خصوصية المكان الذي يعيشون فيه.

جاء النفط وحمل معه التغير وهذا التغير لم يكن تغيراً بسيطاً سطحياً حتى لا يؤثر في هؤلاء البشر، لا بل جاء التغير عميقاً وسريعاً. فقد تغيرت ملامح المكان بسرعة خيالية. فهذا المكان الهادئ الجميل المليء بالنخيل والينابيع سرعان ما تحول إلى أرض موحشة لا أثر للخضرة فيها، بل لا ترى فيها إلا أعمدة حديدية منغرسه في كل مكان. هذه الأعمدة حلت محل النخيل، وترى بدل ينابيع المياه الصافية براميل تحوى مياهاً قذرة لا تصلح للاستعمال البشري، ثم بعد ذلك شيئاً شيئاً أصبحت هذه المنطقة وغيرها من المناطق أسواقاً استهلاكية لكل جديد: بدا أن بعض البشر يتغيرون مع كل شيء جديد يرونه سواء أكان هذا الجديد في الناس الذين لم يتعودوا على رؤيتهم أم في تصرفات هؤلاء البشر الغرباء التي لم تكن متوقعة أو بالأصح مقبولة عند أهل البلاد، أم في الماديات الجديدة التي جاءت مع هؤلاء البشر من الآليات الضخمة التي استعان بها هؤلاء الأمريكيون لتحقيق غايتهم، أو التكنولوجيا الجديدة التي جاءت معهم من آلات بسيطة ووسائل نقل حديثة وأسلوب معيشة جديد ثم بعد ذلك شيئاً شيئاً أصبحت هذه المنطقة وغيرها من المناطق أسواقاً استهلاكية لكل جديد: تدفقت المنتجات الأجنبية ومن كافة البلدان، فظهر المذياع، وشقت طرق المواصلات، واستوردت السيارات ووسائل الاتصال الحديثة، وأنشئت المطابع وشاعت ظاهرة المكتبات، وتعددت مؤسسات الدولة؛ فانشئ الجيش، وأسست دائرة مخابرات، وأصبح للدولة سفاراتها في الخارج، وأرسلت الدول الأخرى مبعوثيها، وافتتحت السفارات والقنصليات في أرجاء السلطنة. ورافق ذلك تغير في البنية التحتية، فشيدت المباني، وأنشئت الأبراج والفنادق، وتدفق الوافدون من البلدان المجاورة والآسيوية والأوروبية، وتغيرت طرق البناء، وبدأت مظاهر الترف والتبذّر تسيطر على حياة الأمراء وكبار التجار، ولا سيما



الوافدين الذي أسهم بعضهم في استعجال الاستيراد لتحقيق مآرب خاصّة، وأخصرّ بالذكر هنا "الحكيم" صبحي المحملجي الذي تدخل في شؤون البلاد، وأصبح مستشارا للسلطان... ولعلّ هذه الدراسة ليست معنية برصد مفردات الحياة المادية، وإنما هي معنية بالحديث عمّا رافق ذلك من قيم متناقضة مع ما هو مستقرّ عند أبناء المجتمع الذي ترصده بعض الأعمال الروائية.

إنّ منيفا يلفت الانتباه إلى مسألتين على قدر كبير من الأهمية، الأولى: تتضح على شكل مفارقة بارزة مخالفة للمألوف الذي طالما أشار إليه منيف في أعمال أخرى كانهيات والأشجار واغتيال مرزوق...؛ إذ يبدو البناء التحتي (الاقتصاد ومفردات الحياة المادية...) مؤثرا على البناء الفوقي (الثقافة بما فيها من تعليم ومنظومة للقيم والعادات والتقاليد...); أي أن منيفا وآخرين أبرزوا في أعمال أخرى النظرة الماركسية التي تنصبّ على أثر الاقتصاد والمادة في تغيير شكل القيم، وتلك أمور لم نر أنها تتحقق في المجتمعات النفطية، على وفق النصوص، إلا على نطاق ضيق. ويتصل بهذه المسألة إشكالية أخرى تتجلى في عدم مواكبة الحياة الاجتماعية للجديد؛ ممّا أفضى إلى نتائج خطيرة تركت بصماتها على مشاعر الناس وأحاسيسهم، وقادت بالتالي إلى بروز بعض مظاهر الاغتراب والازدواجية... وهو ما سيناقد في الفقرات التالية. إنّ هذه التغيّرات جاءت بسرعة كبيرة لم تستطع النفس البشرية أن تستوعبها بسهولة وتتأقلم معها، ولم يأت هذا التغيّر بقدر متساوٍ عند جميع الناس، ولم يكن أسلوب التأثير واحداً عند الجميع؛ فمن هؤلاء الناس من تأقلم وتعاش وانطبع بالجديد كأنه أصل منه، ومنهم من لم يستطع التعايش مع هذا الجديد؛ فعاش بالمقابل حياة اغتراب وعزلة عن الناس، وقد ظهر ذلك من خلال سلوك هؤلاء الأفراد وطريقة تعاملهم مع الآخر وما جلبه معه. كان من أهم وأبرز هؤلاء الأفراد متعب الهذال الذي ارتبط بأرضه والتحم بها حتى أصبح جزءاً منها. يقول د. محمد الشوابكة عن ارتباط الهذال بالأرض:

" يقف الوادي شاهداً على سعادة الهذال، كما يقف شاهداً على معاناته؛ ولهذا يستحيل ارتباطه به ارتباطاً بالذات؛ لأن الأرض تحقق له ذاته، فهي مصدر سعادته

التي تتحقق على المستوى الحيوي من ممارسة الزراعة وتربية الماشية، وعلى المستوى الاجتماعي من ممارسة القيم المرتبطة بالأرض كالكرم والتضحية.... الخ" ( 131).

إذن الأرض تحقق لمتعب الهذال ذاته، لذا نرى ألفةً من نوع معين تشكلت بين متعب الهذال وبين الأرض. الأرض التي عاش عليها وألفها كما هي. الأرض بصفاتها التي يعرفها متعب الهذال نفسه. الأرض بصفات وادي العيون لا أرض أخرى. ويضيف الشوابكة في هذا المجال:

" لقد كشفت الرواية عن عمق انتماء الهذال وغيره من الشخصيات إلى الأرض بأشكال مباشرة وغير مباشرة. فالوادي في نظر الهذال مصدر الحياة، بل هو الحياة ذاتها. ومن هنا كانت علاقته به تسمو إلى مستوى الاتحاد والأسطورة. فبينه وبين الوادي علاقة خاصة عشق من نوع لا يتكرر " ( 132).

وعندما جاء النفط وقبلة الأمريكيون، وعندما بدأت ملامح هذه الأرض تأخذ بالتغيير ومع تغيير الأرض يتغير البشر، بدأ متعب الهذال بالتغيير، فكلما تغير معلم من معالم الأرض تغير حال متعب وكان المكان المستباح نفسه أصبح مغتربا عن قاطنه الأول؛ لأنه أصبح بحيازة من لا ينتمون إليه أصلاً(133). لم يعد الهذال كالسابق ولم يستطيع المقاومة، لم يجد نصيراً يساعده على منع هذا التغيير، لذا بدأ ضعيفاً يائساً. إلى أن بدأ يميل إلى الغربية والاعتراب عن الناس، والاعتراب عن المكان الذي يعيش فيه. بدأ ضعيفاً يائساً يميل إلى العزلة والوحدة، ولعلّ هذا عين ما يطلق عليه "فقدان السيطرة"؛ أي عدم شعور الفرد أن باستطاعته التأثير في المواقف الاجتماعية التي يتفاعل معها، ويعني أيضاً عدم القدرة على التأثير في الحياة الإنسانية في خضمّ المستجدات، فيبدو غريباً عن مجتمعه وعن نفسه، فلا هو بالقادر على العودة إلى الماضي الذي بدأت تتغير ملامحه المادية، ولا هو بالقادر على التأقلم مع الجديد، لصعوبة استيعابه له من جهة، ولانشداده إلى الماضي وامتلائه بالقيم القديمة التي تراكمت عبر العصور من جهة أخرى، ولعلّ من أبرز دلالات الاعتراب التي أشار إليها الباحثون العزلة التي تعني عدم الاندماج الفكري مع المجتمع لعدم مواكبته له

حضاريا وفكريا(134)، وربما تسمى هذه الحالة أيضا "التخارج من الذات"؛ إذ لا يعود المرء قادرا على التعايش مع نفسه ويفقد المصالحة بينه وبين ذاته، وقد يشير الاغتراب عن النفس، أحيانا، إلى أن نشاطات الإنسان وممارساته لا تجلب له الرضى والسعادة، فكأنه فقد صلته بذاته الحقيقية؛ ولعل أقرب تحديد لهذا الضرب من ضروب الاغتراب عن النفس - من منظور علم الاجتماع - " أنه نمط من التجربة يرى الفرد نفسه فيه كما لو كانت غريبة عنه" (135). إن مثل هذه الظروف تُفضي إلى نتائج مدمرة لدى الفرد: تبدأ تدريجيا بالتمرد الفردي، ثم الانعزال الذي يأتي بسبب الفشل، ثم الانزياح عن المتواضع عليه بما يشبه "التيه"، ثم يتطور الأمر إلى التميز السلبي عن الآخرين، بحيث يصبح هو نفسه مصدر سخرية للآخرين. وعندما تغلق الأبواب كلها في وجهه لا يغدو قادرا على المواجهة، فينكفي على الذات، ثم شيئا شيئا يفقد التصالح مع ذاته إلى أن ينتهي الأمر به، في بعض الحالات، إلى الجنون وقد تقود هذه الحالات إلى الانتحار كما تشير بعض الدراسات.

متعب الهذال لم يصل إلى هذه النتائج كلها، وإن كان غيره عانى منها بطريقة أو بأخرى، كشخصيات العتيبي والرشدان ومحمد عيد وكثير من الشخصيات الروائية التي تخضع للدراسة- بيد أن الهذال سقط في النهايات في الاغتراب؛ فاعتزل الناس، وتوارى عن أصدقائه وأعدائه، واكتسب اختفاؤه، كما رأينا، بعدا أسطوريا، يقول السارد في رواية التيه:

"أحس فواز تلك اللحظة أن أباه انتهى. أنه سقط في بئر عميق لا قراره لها. وأنه لا يريد أن يرى بشرا أو يسمع صوتا، حتى فرسه التي كانت في الظل إلى جانبه وبدت ودیعة مستأنسه وكأنها لا تريد مفارقتة أبدا، بدا وكأنه يضيق بها ولا يريد لها أن تبقى إلى جانبه، إذ ما كاد فواز يلتقط البندقية ويهم بالمسير حتى قال له بحدة:

-اربط الدهماء تحت ذيك النخلة.

وأشار دون أن يلتفت إلى نخلة بعيدة، ثم انقلب على جنبه، كأنه يدخل في ملكوت النوم والغيوبة وربما الموت ( 136).

وكل هذا إن دل على شيء فإنما يدل على شدة الاغتراب عند الرجل، فلم تعد الحياة كما كانت، ولم يعد يستطيع التعايش معها بنفس الطريقة السابقة. لذا نرى أن من أهم علائم الاغتراب العزلة عن الناس والابتعاد عنهم. فلم يعد يطيق سماع أي صوت ولا رؤية أي شيء حتى لو كان فرسه المحببة إلى نفسه. يشتد شعور متعب بالغربة ويزداد حتى تضيق به الدنيا، حتى لم يعد يطيق أن يبقى في ذلك المكان الذي عاش فيه حياته كلها بكرامة وعزة، ذلك المكان الذي أحبه كما لم يحب مكاناً آخر في حياته.

كلما ازدادت مظاهر التغير وظهرت معالمها أكثر ازدادت رغبة متعب بترك المكان. فشدة التحام متعب بالأرض لم تترك له مجالاً لمجاراة هذا التغير للأرض فهو لم يحس للحظة واحدة أن الأرض تبارك هذا التغير. لا بل العكس كان يسمع أنين الأشجار مع كل اجتثاث واقتلاع. وهو مثل هذه الأشجار يئن ويصرخ ولا من مجيب. لذا لم يكن أمامه إلا الرحيل والاختفاء عن هذا المكان. فالمكان تغير ومتعب تغير لكن تغيره لا يتماشى مع كل ما يجري. فهو لم يستطع أن يجاري الجديد وفي نفس الوقت لم يكن بمقدوره الاستمرار في القديم فقد كان اغترابه اغتراباً كاملاً عن الإنسان والمكان سواء بسواء. ويبدو أن الهذال بدأ يشعر أن أعماله، وإن بدت في نظر الآخرين أسطورية، لم تعد تجدي نفعاً وأنه لم يجد المكافأة والقبول الاجتماعي، ويسمّي السيد علي شتا هذا النوع من الاغتراب بـ "الذاتي" (137).

ويرى بعض الباحثين في ظاهرة الاغتراب أن من أبرز مفاهيمه ومؤشراته تحلل المعايير أو ما أطلق عليه عالم الاجتماع الفرنسي إميل دوركايم مصطلح "الأنومي" ليشير إلى الموقف الذي تتفكك فيه المعايير الاجتماعية فلا تبدو مؤثرة ولا تؤدي وظيفتها قواعد لضبط سلوك الأفراد. وقد أوضح دوركايم في دراسته للأنومي أن المجتمع الذي وصل إلى تلك المرحلة يصبح مفقراً إلى المعايير الاجتماعية المطلوبة لضبط سلوك الأفراد، أو أن معاييرها التي كانت تتمتع باحترام أعضائه لم تعد تستأثر بذلك الاحترام الأمر الذي يفقدها سيطرتها على السلوك (138)، ويشير هذا المصطلح في بعض معانيه إلى الحالة التي "تغرق فيها القيم العامة في خضم الرغبات الخاصة

الباحثة عن الإشباع باية وسيلة" (139). ويرتبط بهذا المفهوم ما يطرأ على المجتمع من تغيرات حادة تبرز من خلالها معايير جديدة مفاجئة لا يستطيع أفراد المجتمع الاستجابة لها، فتصبح هذه المعايير عاجزة عن السيطرة، أي أن انتقال الإنسان من عصر يتسم بالاستقرار وثبات القيم إلى عصر يتسم بالاضطراب وتفكك المعايير يؤدي إلى حالة اغتراب شديدة لدى هذا الإنسان.

أما اغتراب محمد عيد ذلك الشاب المحب المليء بالمشاعر المرهفة نحو نادبة قريبة الحكيم، ذلك الحب البريء الذي لم يجر له إلا التعب والعذاب - فمرده إلى إخفاق عاطفي؛ إذ تحول الفوارق الطبقيّة بين المرء وتحقيق طموحاته، وعندها تكتسب الأشياء والناس ألوانا سوداء، ويجد الإنسان نفسه منعزلا، أو يقوم هو باعتزال الآخرين ويتعمق اغترابه. ربما لم تظهر على هذه الشخصية، في البداية، أي علامة من علامات الاغتراب. ربما أنه في البداية استطاع التأقلم في الحياة الجديدة، الحياة النفطية وأنه استطاع الاستجابة لهذه الحضارة بشكل تام، لكن ما أن رُفض طلبه بالزواج من نادبة وما أن رأى طريقه رد الحكيم عليه عندما طلب هذا الطلب حتى بدأت الأمور تتغير. لم تعد موران بكل ما فيها تسع محمداً، ولم يعد أهلها إلا خصوما له وعلى رأسهم الحكيم فلجأ إلى حران علّه يجد فيها سلوى تخرجه مما أحس به من غربة عن أرضه وأهله، لكن ما إن دخل حران حتى بدأ الماضي يتجسد أمام عينه، وبدأ يتذكر الشكل القديم للمدينة، عندها بدأ يشعر بالاختناق والضيق فرائحة المدينة كانت مزيجاً من البترول والبهارات والكبريت والصحراء والغبار وبقايا الأكل والأسماك الميتة وإطارات السيارات المحروقة إضافة إلى رائحة البشر. هذه الروائح مزيج من الماضي والحاضر مزيج من القديم والجديد لا تشكل إلا رائحة عفنة كريهة لا تطاق (140). وعلى الرغم من أن الجديد يطغى على القديم فإن رائحة البترول أقوى من رائحة بقايا الأسماك الميتة. وهي كلها تطغى على رائحة الصحراء.

وهذا كله لا يدل إلا على اغتراب تشكّل في نفس هذه الشخصية وكأن محمداً يحن للقديم ويحن لحران السابقة القديمة ودليل ذلك:

"كل شيء يبدو جديداً وغريباً في نظره الآن واستغرب أشد الاستغراب أن مثل هذه الأمور جرت خلال فترة قصيرة من غيابه عن حران، وإذا كان النفور قد دخل إلى قلبه وشعر أن المدينة تطبق عليه فلم يكن يرى مفراً من البقاء والإقامة بها" (141).

هذه المشاعر وهذا النفور وهذا الضيق لم يأت من فراغ بل كان له مبرر وهو نفسية تعبئة يملؤها الأسى والحزن بالإضافة إلى أجواء جديدة لا تريح النفس خصوصاً نفس كنفس محمد عيد. قال لنفسه عن حران وهو يحاول البحث عن عمل: " حران إسطنبول ويجب أن تبقى بهذا الشكل حتى آخر قطرة من النفط. وعندها يتركها البشر والدواب ولا يبقى فيها سوى الرياح والقبور " ( 142). هذه النظرة المأساوية للمكان لم تأت إلا من شخص يعاني اغتراباً واضحاً تجاه المكان والأشخاص صاحبه نوع من الوحدة وهي شيء طبيعي يلزم الغربة بالإضافة إلى الحزن الملازم لصورة الحكيم المحملجي؛ لأنه سبب كل ما هو فيه، وفضلاً عن ذلك فإنّ تغيّر بنية المكان وحيازته من الآخر قد تقضي إلى فقدان الصلة به. وعلى الرغم من كل ذلك فقد حاول محمد عيد الخروج من حالة الاغتراب التي يعيشها، حاول العمل والانخراط بالجديد ورغم كل المحاولات فإنّ حاله من الحزن والأسى سيطرت على الجو. وكان كل شيء حوله يؤكد هذه الحالة. وآخر شيء قضى على كل أمل لمحمد بتقبل هذه الحياة مشهد الإعدام الذي شاهده في حران فلم يكن مشهداً عادياً، بل كان مشهداً دمويّاً يقتل فيه الأبرياء؛ عندها فقط أحس بالغضب الحقيقي والخوف الحقيقي وتبعهما هذه المرة الخزي من هذا الموقف الصامت تجاه الظلم، ولم يكن أمامه إلا الرحيل والاختفاء مثلما اختفى قبله متعب الهذال. هذه النماذج ظهرت إما بعد النفط مباشرة أو أن سبب الاغتراب الحقيقي ليس النفط وحده، وإنما أسس ذلك طبيعة الشخصية زيادة على الاغتراب عن الوطن الأصلي.

بيد أن الأخدود قدّمت نماذج أدلّ عمقاً على معنى الاغتراب، وهذه الشخصيات رأيناها مع ظهور النفط، وهي شخصيات جلّها من كبار السنّ — لم تكف لحظة عن

توجيه النقد لكل ما لا يتوافق مع أفكارها ومعتقداتها— وهي شخصيات ساهمت بشكل كبير في صياغة حياة ما قبل النفط:

"ولكن هذه المساهمات بدأت تتراجع لعدم قدرتها على التنافس مع الجديد، بل لعدم قدرتها على التكيف مع مجتمع النفط والمال والسيارة والطائرة. والحقيقة أن هذه الشخصيات لم تكف لحظة عن النشاط، فقد حاولت المقاومة، وكانت دائمة النقد والاحتجاج الخافت والمجهور؛ ذلك أنها مقتنعة بأن تراجعها لم يأت نتيجة عجز، وإنما جاء من كونها لم تُعطَ الفرصة للتكيف مع الحاضر. إنها لم تخلق فقيرة أو أمية، بل إن الظروف المحيطة هي المسؤولة عن ذلك" (143).

كانت أحيانا تجاهر بأرائها ولا تأبه بما تقول، حتى وإن كانت تتحدث بهمس وصوت منخفض لتأكدوا أن النتائج لا تحمد عقباها. إن السرعة الهائلة التي استوردت فيها مفردات الحياة المادية أفضت بالضرورة إلى اقتحام حياة الناس دون إفصاح المجال لفهم الجديد، وهذا هو عين ما يطلق عليه انقلاب المعايير. إن أي طفرة مباغتة أو انقلاب في الحياة الاقتصادية أو السياسية كالثورات المفاجئة يقود إلى عدم قدرة الفرد على التكيف واستيعاب المستجدات، وهذا يؤدي عادة إلى تشتت الانتماءات وضياع الذات.

لقد عاشت هذه الشخصيات حياة اغتراب وغربة ويتحدث محمد الشوابكة عن سبب هذه الغربة ويقول:

" إن الثورة النفطية جعلت الجيل المعاش لتفجرها معلقاً بين القديم والجديد، ينتمي بقيمه إلى مرحلة سابقة، ويعيش في زمن جديد يبدو محروماً من المشاركة في صياغته. ويقف موقف المتفرج منه فيتحرق شوقاً إلى الماضي، وإذا كان هذا الوعي الفردي لم يستطع في البداية أن يتمخض عن خلق إحساس جمعي، فإنه فيما بعد أخذ يمتدّ وينمو حتى شمل نماذج كثيرة من الطبقة المسحوقة " ( 144).

نلاحظ في الأخدود أن الشخصيات التي يتركز عندها الاغتراب هي شخصيات مضطهدة في الأغلب الأعم، وأهم هذه الشخصيات شخصيتنا صالح الرشدان و شمران

العنبي. ويلاحظ أن هذه الطبقة لم تتبلور في الرواية بشكل واضح وكامل ولم تمتلك الوعي الصحيح لماهية التغيير، فكان حقدًا يتجه نحو رموز الطبقة الوافدة، غير واعية إلى أن مصدر معاناتها ومصائبها يكمن في النظام القائم. كما أنها لم تستطع التكيف مع التغيرات التي أحدثتها الطفرة المالية في الحياة الاجتماعية. فظلت أسيرة عزلتها ومفاهيمها القديمة.

وينبغي الإشارة إلى أن اتساع الهوة بين المنشود والمتاح يفضي إلى الاغتراب؛ فما تملكه بعض الشخصيات من قدرات كانت إلى عهد قريب، كما سنرى، تحقق أهدافها وتكون لها منزلة اجتماعية – لم يعد مع الطفرة النفطية يكفي لتلبية احتياجاتها، بل يقف التشبث بهذه القدرات القديمة حجر عثرة أمام تطورها ونموها. والسؤال الذي تثيره الروايات، من بين كثير من الأسئلة، هو فيما يتعلق بهذه المسألة: كيف يتمكن الأمي المتشبث بعاداته وتقاليده أن يقترب من المنشود الذي أتى به الجديد؟ لم تتدرج بعض الشخصيات، كما هو الحال عند الجيل الجديد، في فهم المستورد والدخيل، لم تستطع إمكاناتها من تحقيق طموحاتها، فكيف يتعامل الأمي مع الكتاب والمذياع والسلاح ووسائل الحياة الجديدة... إن كل ذلك يؤدي إلى إخفاقات متتابعة تعمل على تدمير الإنسان ودفعه إلى السقوط. إن ما حدث بعد تفجر الثروة النفطية نقل الناس من حياة البداوة والبساطة إلى عصر التطور التكنولوجي والعلم والمعرفة. وقد استطاع بعض الناس من خلال أبنائهم وأحفادهم التأقلم مع الجديد، ولكن شريحة أخرى هوت في حالات من التأمل والانعزال وانعدام القدرة والتوازن؛ فجاء اغترابها حادًا وسقوطها مدويًا. وإذا كان متعب الهذال ومفضي الجذعان أمثلة على "المغترب" في "النتيه" فإن "الأخدود" تحفل بأمثلة كثيرة لعل أبرزها – كما رأينا – صالح الرشدان وشمران العنبي من أبناء المنطقة، ونماذج مختلفة من الوافدين في "مدن الملح" أو في غيرها.

وُصف صالح الرشدان، الذي لقب بنذير حيث كان يثير الهرج والمرج في سوق الحلال الذي كان يعمل فيه، بأنه معتوه أو مخبول جاء ذلك من قبل السلطة الحاكمة والمنفعيين من أعوانها، ولم يقف الأمر عند هذا الحد وإنما شارك أفراد ينتمون



إلى شريحته الاجتماعية نفسها في الاستهزاء والتندر، ولكن النصّ يثبت أن صالحاً يمتلك وعياً عميقاً بأهمية القديم في ضمير الأمة وأن أبناء طبقتهم "لم يصلوا إلى الدرجة ذاتها من الوعي بالإحساس بالاستلاب" (145). وما لُقّب صالح بهذه الألقاب إلا لغرابة القيم والأفكار التي يحملها ثم بعد ذلك لغرابة الأحكام التي يطلقها على الأغنياء لذا اعتقد الناس أو بالأصح أطلقوا عليه لقب المجدوب. فقد كانوا دائماً يرونه وهو يتحدث إلى الحيوانات وقد كان يتحدث إليها أكثر مما يرغب في أن يتحدث إلى البشر وكان دائماً يبحث هذه الحيوانات أن تعاند أصحابها. إن الرشدان بدأ يفقد الصلة مع من حوله، بعد أن كان جزءاً فاعلاً في المجتمع.

يقول لأحد الحمير "لا تظل حمار طول عمرك ببس راسك. عاند. والبط وإذا رفست عور ولا تخف" (146). ولم يكن صالح ليخاف من رأي ألقاه أو كلمة في قلبه يخرجها، قال معرضاً بالسلطان عندما بدأ يلبس الحرير والقصب "خذوا بالكم يا أهل السوق... ترى أول الرقص حنجلة" (147).

لم يكن أي تجديد يحصل يعجبه ويقنعه وأول هذا الجديد هو نقل سوق الحلال. فلم يعجب أحداً من أهل السوق؛ لكن صالحاً كان من أكثر الذين تمسكوا بالرفض فقد كان يأتي إلى السوق بعدته ليمارس عمله مع علمه بقرار نقل السوق. لكنه بعد مدة اضطر إلى ترك السوق لأن الآلات بدأت بهدم السوق. هذا لا يعني أن صالحاً لم يحاول التكيف مع هذا الجديد؛ فعندما نقل السوق ولم يبق له عمل، حاول إيجاد عمل جديد وكان هذا العمل يتماشى مع موران الجديدة، حاول أن يعمل في تجارة السيارات لكن الناس تتغير مع تغير المكان "فبعد أن كان يمتدح على كل مهارته في العمل، أصبح الآن مكان سخرية للكثيرين. كانوا يقولون معبرين عن ذلك عند انقلاب الأمور "هاالقلاب يا صالح ببي حذوة"، ويشيرون إلى سيارة كبيره خلفها سيارة صغيرة: "ها لفرس ينراد له قص أضفر وحذو يا صالح لكن بشرط الصغيرة إلي وراها على البيعة وش قولك" (148).

ويظهر من خلال السياق الروائي بشكل عام أن المؤسسة السياسية القبلية لم تلتفت إلى أثر التغيير السلبي في حياة الناس، بل كانت منشغلة بالاستهلاك والمحافظة على المكتسبات الشخصية، ويشير بعض الذين درسوا هذه الظاهرة إلى أن القصور المعرفي أو الوعي الثقافي سواء من جهة المغترب نفسه أو من جهة المجتمع بما في ذلك الطبقة الحاكمة تقود في النهاية إلى حالة اغتراب الفرد (149)، وكان المؤسسة الحاكمة تسهم في الحيلولة بين الفرد وتحقيق ما يتناسب مع عقليته وقيمه من طموحات بوسائله التي يمتلكها، وهنا يهيمن على الفرد شعور بأنه لا يستطيع التأثير في المواقف الاجتماعية، وأنه غير قادر على تحقيق الأهداف التي تتناسب مع قدراته. ويؤكد كثير من الباحثين أن هذه الحالة تشكل واحدا من مفاهيم الاغتراب بمعنى العجز وانعدام السيطرة والقدرة (150)، وكل هذه المظاهر نراها جلية في سلوك الرشدان وعلاقته مع الآخرين، فكلما ازداد وضع موران تطورا وازداد تدفق النفط وتحسنت الأمور ازداد وضع صالح تراجعا وسوءا إلى أن قرر أن يقدم طلبا إلى السلطان لعله يعينه مسؤولا عن الخيل في القصر. لكن طلبه لا يجاب وهذا الرفض لطلبه لا يزيده إلا حقا على وضعه وحاله، وحقدا على السلطان نفسه فبدأ ينقد السلطان علنا في المقهى والمسجد والسوق، ويجاهر بأن السلطان يغلق بابيه في وجه الفقراء والمحتاجين ولا يتورع عن نقد الأغنياء الذين يبنون القصور وغيرهم لا يجد قطعة خبز.

لم تقف الأمور عند هذا الحد بل كانت الأمور تسير إلى الأسوأ فقد مات ابن صالح الرشدان. مات ابن سنتين ولم يجد صالح الرشدان من يقف بجانبه أو حتى يواسيه في مصيبيته. بل على العكس أصبحت قصة صالح نسيا منسيا. لذلك فإذا كانت موران قد عرفت صالحا فيما مضى من أيام وأحببت شتائمه وطريقته في التعامل فإنها ما لبثت أن تجاهلته ثم نسيته (151). إنها العزلة المفروضة على الإنسان نتيجة ظروف موضوعية؛ ويشير مفهوم العزلة إلى الحالة التي يفقد فيها الأفراد الانتماء إلى المجتمع وتحل العلاقات الثانوية الرسمية النفعية محل العلاقات الشخصية الودية. وقد يصل الفرد إلى مرحلة يكون فيها محاطا بالآخرين، ولكن يمتلكه في الوقت نفسه شعور بأنه

اعيا؛ وذلك لأنه يشعر بأن التواصل الاجتماعي **ضعيف أو** أنه  
(152). أما نتيجة هذا الحصار الشديد والعزلة **القاتلة فكانت**  
يؤدي كما هو معروف إما إلى الجنون أو الانتحار، بدأ **صالح**  
يكلّم نفسه وحتى لا يخطئ أو يتردد أطلق أسماء **يبتغى من خلالها**  
وأخذ يخاطبها أو يتحدث إلى الجدران يشكوها **همه وعذرتة**  
ب جام غضبه على التغير السريع (153).

بران العتيبي فيقول الشوايكة عنه:

أحزانه متوارياً خلف الصمت. فشران العتيبي **مقل صالح** شكل  
هو لا يبتعد كثيراً عن صالح الرشدان فهو يتعاطف معه **ويؤمن**  
بجانبه في كثير من المواقف لأنه يؤمن باحتجائه. **شمران**  
بقة المضطهدة مورس عليها الظلم وهو مثل **صالح** كلما **زاد** تدفق  
أ وترجعاً وفقراً... إن ثمة مسألتين هامتين **تلحان** على العتيبي:  
هما ترتبطان بقيم اجتماعيه واقتصادية موروثة **وققد** انهما **معاً** يعني  
ضيه: القيم والتراث. حاول العتيبي أن ينسى **خيولته** وسوق **الاحلال**،  
عن كل ما حوله وأكثر من ذلك يحس بالعداء **وخلافاً** لسابق  
جزء مما يحيط به. عنصر في دائرة كبيرة، **عصو في** بناء

العتيبي يتفوق بين القديم والحديث فهو مثل **صالح** حاول **الاقلام**  
تطع. حاول أن يدخل في هذا الجديد لكنه مع كل **محاولة إلى** الأمام  
اء؛ لذا يجد أنه أصبح إنساناً آخر. غربة كاملة **في** وطن **عاش فيه**  
وطموحاته، وتكونت في أحضانه شخصيته، لقد **أصبح** يبتغى كما  
ع وأن كل شيء دون جدوى " (155). كان يرى **في الخيل** حياته  
ن أي محبه وتعلقه بها يفوق تعلقه بأي شيء؛ **لأن** **حنواصيها** الخير  
ن شمران: إن الرسول هكذا قال: ويضيف " **وإد** **ضاق** صدر

الإنسان أو ظلمه سلطان فعلى ظهورها يغير أهلا وأحبابا وأوطانا. وبعد قليل يهمس كأنه يتأمر " ويجى بهما واحد من الأحمرين: الدم أو الذهب. ويبتسم وهو يختم كلامه " وما يندرى يمكن يجي بها الاتنين جميع " (156). لذا فإن ضياعه ما اشتد إلا عندما أحرقت خيله وأرضه التي سرقت وأجبر على بيعهما للغريب عندها فقط ظهرت الغربة بعمق عند شمران العنبي، فرغم أن وضع شمران المادي ليس مثل وضع صالح الرشدان فإنه وقع في حبال اللاسيطرة، فصالح لم يجد مصدر رزق يقات منه. لكن شمران كان ممن ازداد ماله " لكنه دون بركة ودون معنى" (157)، كان المال يأتي ويضيع دون استفادة تذكر منه.

كان شمران يحس بتغير الوضع وأكثر من ذلك يحس بتغير الناس " أخلاق الناس وأشكالهم تغيرت، كأنهم ليسوا الذين يعرفهم. حتى أولاده تغيروا، قال في نفسه بلوعة: سبحان الدايم الذي لا يتحول ولا يتغير " (158). بعدها أصبح شمران مثل صالح لا يتورع عن قول كلمته " فقد دفعوه بالقوة لأن يشتم وأن يقول أي شيء. لم يكن يكتفي بالكلمات، إذ إضافة لها يستعمل يديه، وكثيراً ما كانت تلك الإشارات أبلغ دلالة وتعبيراً من الكلمات ". (159) إن كثرة الضغط تولد الانفجار وهذا ما حصل مع شمران العنبي حرقوا خيله واغتصبوا أرضه، وفي النهاية أخذوا منه أعز ما عنده ؛ أولاده الذين ساروا على طريق والدهم في المجاهرة بكل ما هو خطأ من وجهة نظرهم. هذه بعض النماذج الحية التي جسدت الغربة عند الإنسان ورأينا أهم أسباب الاغتراب عند هؤلاء هو عدم قدرتهم على التكيف مع الجديد، فالقديم يسيطر عليهم ويشدهم له بقوه. فهم عاشوا معظم وقتهم بالقديم، ومواصفات القديم تنطبق على الأشخاص الذين عاشوا فيه، فهو زمن بطيء بسيط يخلو من أي تعقيد. أما زمن النفط فهو زمن متسارع ومعقد، وجاء فجأة ودون أي تحضير لذا كان من الصعب التأقلم معه؛ مما ولد حالة الاغتراب عند من عاش الزمنيين. يعلق الشوابكة على هذا الموضوع فيقول:

البناء الفكري، بل ربما كان يشجع على استقرار القيم وثبات الأفكار. وبالأسلوب المباشر الذي اعتدناه عند الراهب يروي النص:

"نفيطية. بلاد الرمال والسيارات والمصارف ومكيفات الهواء والرؤوس المثلثة. قال دربيع أحمد:" نحن شعب أنشأه الإنجليز، قال:" بضعة آلاف تلمموا من عشائر الصحراء. رسم إنجليزي حولهم خطا بقلم رصاص. وقال: كونوا نفيطية جيم. يتكلم المتقنون عن صدمة الحداثة؛ أنا أتكلم عن صدمة القدم: عن بدو زاهم النفط بداوة" (165).

ويبدو واضحا أن الراهب يوظف تقنيات "ألف ليلة وليلة"، إذ يهيمن غير المؤلف والخارق وتطل علينا العفاريت وأنواع الجن الذي تنقل الإنسان من مكان إلى آخر ومن حال إلى حال بطرفة عين، وكل هذا الإلحاح يأتي مؤكدا للطفرة والقفز اللذين يعبران عن حالة مرضية وليست صحية، يعبران عن خيبة العربي في عصر العلم والتتوير وغرخته عنه؛ ولا ينسى — كالعادة — أن ينتقد الأوضاع السياسية؛ إذ توظف التكنولوجيا في خدمة الحاكم وحمائته، بل تصبح حراسة الحاكم "علما":

"ذاكم هو الخليفة في لحظة غافلة ينتفض الأعرابي في دمه. يطبق الكتاب ويخرج من ذلك الباب. يفتح كتاب النفط. يدير ظهره للقرن السابع ويمضي نحو القرن العشرين. يثب عن ظهر الهجين ويجلس وراء مقعد الليموزين. عيناه تفران بصفوف المطوعين وأسراب العذارى. وهو وحده لديه التكنولوجيا والحرسولوجيا. فليعد إذن إلى القرن الثامن.

الشجرة الوحيدة التي تموت خارج الصحراء: الأعرابي. لا يستطيع الخليفة أن يمكث طويلا في القرن العشرين. هو والماء ضدان. هو والتراب ضدان. لولا أن انقطع المطر ومات الشجر لما تكون الأعرابي ولا النفط.

ويستغرق الكاتب في تحليل البناء السياسي الذي بقي ثابتا لم يتغير وكأنه خرج من عصور سحيقة على التو، ويشير إلى أن العربي أصبح مجال سخرية للغرب؛ لأنه يفنقر إلى امتلاك الإرادة والعقل العلمي، ويعيش في زمن غير زمنه. يُحيدُ الحاكم، وينسى

تشير " قدح من نפט" إلى شيوع النمط الاستهلاكي في الحياة العربية على جميع المستويات، بطريقة مثيرة؛ إذ تجد في المدن كل شيء ولا شيء عربي، وحتى في طريقة البناء تجد كل طراز أجنبي حتى يكاد العربي يضيع فيها؛ فتفتقر المدن إلى هويتها. تتحدث الرواية عن الاستهلاك وتذكر أن بطل الرواية ظافر الأحمد جلب معه سجائر، ولكنها لم تعجب صاحب اللباس الوطني! قال المواطن: " لكن سجائر المالبورو... أعظم وأفخم نكهة... أخرج ولاعة فاخرة، فيما غرق ظافر الأحمد في تأمل عميق... السجارة بريطانية، الحذاء إسباني، الولاعة يابانية... العقال... الدشداشة... يورقه هذا الخليط غير المتجانس" (167). إن هذا الخليط دلالة ازدواج بين تجاوز الوعي وغيابه. وتؤكد الرواية غياب الوعي العربي الذي أصبح مأخوذاً بالدعايات التي تقدمها دور الإذاعة للمنتجات الغربية أكثر من التفكير في المساهمة في صياغة الحياة المعاصرة" رجال بيكون، جينة أبو الولد الأصلية... جربوا شراب الكولا وسترن.."، ويعلق السارد على ذلك بما لا يحتاج إلى تأويل: "نقتي في أدمغتنا مبادئ العصر الحديث، ثم نبقئها محبوسة في عقولنا، ونستوحي لأفعالنا وصلاتنا الاجتماعية والإنسانية مبادئ أخرى نقيض المبادئ الأولى" (168).

وقبل هذه الرواية كانت "الأخود" قد قدمت هذا المعنى بطريقة تكاد تكون متشابهة: فالناظر إلى موران - مثلاً - لا يرى فيها خصوصية أو تميّزًا يجعلها تدوم وتستمر كالمدينة العريقة؛ فبناء موران "ضمن ألف طراز شبيهة ببعض الطيور الإفريقية: مزركشة جدا، لكن دون جمال، الطراز القديم إلى جانب الطراز الحديث، اللبن إلى جانب الزجاج العاكس... والأندلسي إلى جانب الياباني"، وزيادة على ذلك فإن هذه المدينة بُنيت لأهداف معينة، ولكنها "ولدت في غير مكانها، وغير زمانها... حتى الذين بنوها سوف يتخلون عنها؛ لأنهم لم يتصوروها بهذا القبح، وهذا العداء، ماذا يفعلون بناطحات السحاب الزجاجية إذا أصبحوا عاجزين عن تأمين التبريد لها؟" والمدينة مستوردة لم يعمرها أهلها، وبمجرد تخلي الآخرين عن حمايتها سيتخلى عنها ساكنوها، وقد تجاوز هذا التشويه المدينة إلى إنسانها، فأصبح الإنسان "طرازا مشوها

هو بالذات يجب أن يخلى شوارع المدينة من المتسكعين، ويرسلهم إما إلى السجون وإما إلى المساجد. هو بنفسه لا نشوة إلا اغتصاب الخادمت الآسيويات يمكن أن تعادل التقاطه متسكعا... " (171).

وهذا المغتصب يقول لزوجته أو لعشيقتة عندما دخلت الكفيتيريا لتناول فطورا إنجليزيا: "تطلبين طعاما فيه لحم خنزير! أنت المرأة المسلمة وفي حضوري أنا" ثم تمالك ذهوله وأضاف: "غدا تصدر الجرائد في طول البلاد وعرضها وتعلن كيف يدوس المسلمون على إسلامهم في أوروبا". ونهض فجرجني من يدي إلى جناحي، وهروا إلى دهليز فندقه. يا مليكي يا شهريار، إذا كنت أقبل أن يضاجعني خنزير؛ أفلا أشتهي أن أمضغ بعض لحمه؟" (172).

وثروي شهرزاد أن شهريار ضغط على جهاز صغير معلق على رقبتة وأدخلها في سرداب عجيب مدفون في الأرض ومطلّ على الفضاء والخليفة يشدّ على زندها ويقول: "كيف أوأم بين كتاب محمد وكتاب النفط؟ أنا أقصد هذه الفلوات عند الغسق... وأناجيه طالبا حلاً. لكنه فعلا لا يردّ. يريدنا أن نعرف ما يريد دون أن يتكلم. مثلما كان شأنه دائما (...). التفت حوله وغمغم: "أليس لدينا هنا ويسكي... (173) ، وفي مواقع من الرواية يتزامن التعامل مع المفردات المادية مع الاحتفاظ بقيم التسلط والقتل مع تطبيق حكم الشرع على الفقراء والمضطهدين (174). ومن أشكال الازدواجية التي يرصدها الراهب سلوك الأكاديميين والمتعلمين؛ إذ نرى فيها تناقضا جليا بين الروح العلمية ومتطلبات الدين من جهة، والتزوير والتدليس من جهة أخرى؛ ففي الوقت الذي ينتظر أن يعمل النفط فيه على رقي الناس وحثهم على العمل والصدق، نجد الحياة العلمية قائمة على التزوير، فأساتذة الجامعات — كما ترى شخصية عربي — يترقون على الأبحاث التي يكتبها الوافدون. ومن كان يقوم بذلك ويظن أنه ارتكب خطيئة " يكتشف لسعادته البالغة — أن هناك جماعة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر تمارس هذا العمل الخيري في الجامعة كلها... ومنذ ذلك الوقت لم يغب عن صلاة واحدة في المسجد" (175) ويميل النص إلى المباشرة فيجعل الحياة في مجتمع النفط "خلطة

عجبية"، يقول د. ربيع أحمد: "...ولكن صدقني مستحيل، مستحيل أن تعيش وأنت في القرن العشرين مع هذه الخلطة العجيبة من الجاهلية والقرن العاشر وعصور الممالك، والنظام القبلي العائلي في كيان سياسي لديه جامعة وتلفزيون وبرلمان" (176). و لعله من قبيل السخرية المرة أن نجد من يعجب بالجمال، ولكنه فوجئ بالجمال يلتقم " كتابا عنوانه البنيوية"؛ إن العلم يسخرها هنا في خدمة الجمال!! (177).

ومن الواضح أن العربي استطاع أن يستخدم ويستهلك التكنولوجيا، ولكنه لم يفهم شيئا من كل ذلك، وتصرح الرواية بأن العربي لا يزال مستهلكا هامشيا يصر على التمتع بالتكنولوجيا وهو مسكون بمفاهيم قديمة تعدها الرواية بالية متخلفة (178).

أما الشخصيات الممثلة لذلك في " مدن الملح" فكثيرة، لعل أبرزها شخصية ابن الراشد في "التيه": ففي حين نرى أنها شخصية دينية همها إقامة شرع الله والالتزام بما أمر، نرى أنها من أوائل الذين جاروا وظلموا بعد ظهور النفط. كان ابن الراشد قبل ظهور النفط مثال الشخصية الدينية الأنموذج، فعندما جاء الأعراب لأول مرة سُمع وهو يقول لو احد منهم: قل لا إله إلا الله محمد رسول الله. وقال الرجل وراءه: لا إله إلا الله محمد رسول الله. لكنه مع ذلك بدا شخصا مختلفا منذ أن وصل هؤلاء الأجانب وبالفكر والعناية... فقد كان في دخيلته يحس أن مغانم كبيره يمكن أن تجنى من هؤلاء. يهمله أن يسلموا وينطقوا بالشهادة لكنه بنفس الوقت يهتم بما سيجنه من وراء هؤلاء الأعراب. وحين ذهبوا إلى الأمير بغرض أن يشكوا من سلوك هؤلاء الغرباء ومن تصرفاتهم التي تخل بالشرع وبالدين كان هذا هو الغرض الرئيسي لذهابه إلى الأمير لكننا سرعان ما نرى تغير الحال مع كثرة الإغراء فكانت النهاية أن قال - كما رأينا في فصل سابق -: "حنا مع الحكومة، يا طويل العمر. اللي تختاره الحكومة فيه خيرة الله. نوافق عليه".

عندما بدأ النفط بالتدفق تغيرت نفسية ابن الراشد كليا أصبح همه التعاون مع الأمريكان والحرص على راحتهم وتنفيذ كل ما فيه مصلحتهم حتى يعم الخير وتصل المصلحة له. لكنه رغم هذا نجده دائما يجاهر بأن مصلحة أهل وطنه هي همه الأول



وهي غرضه الرئيسي فهو يبحث عن مصلحة أهل موران. كان أول من ساعد الأمريكيان على اقتلاع أهل موران من أرضهم وفي نفس اللحظة وقف معلنا أن كل ما يحصل لهم هو خير لهم لا عليهم. عندما مات ابن الراشد وهو نموذج تام قدمه الروائي بإقناع ومنطقية، ربط الناس بين وفاته وازدواجيته؛ فقد عمل ابن الراشد مع الأجنبي لحظة دخوله الصحراء العربية واستطاع أن يبني علاقة مع المتنفذين؛ فتنازل عن كثير من قيمه القديمة لكي يظفر بما يقدمه النفط، لكنه مع ذلك ظل يدعي حرصه على قيم الخير والدين. وقد قدم عبد الله الزامل إحدى شخصيات التيه تحليلاً لشخصية ابن الراشد بقوله " ابن الراشد كلب ابن كلب: طماع، يحب نفسه. لا يحل ولا يحرّم. لكنه مسلم ابن عرب يعرف الصحيح والغلط وهذا اللي هبله وهذا اللي قتله " (179). هكذا ظهرت ازدواجية ابن الراشد. كان شخصاً مسلماً ملتزماً متشرباً لأحكام الدين وأحد أهم الشخصيات التي يعتمد عليها سكان موران في الخلافات الدينية. لكنه في نفس الوقت لديه نفس طماعة لا ترفض الجديد مهما كان إذا كان فيه مصلحة لها، نفس لا يمكن إيقاف طموحها عند حد معين، حتى لو تجاوز هذا الدين والعرف والعادة.

وثمة نموذج آخر يدل على الازدواجية وهو شخصية الحكيم الشامي صبحي المحملجي. كان يدعي التقوى والدين والحرص على إقامة دين الله، ولكنه، كما نرى، جعل همه الأول جمع المال. كان الحكيم يرى في أهل موران مثالا للتخلف وهم أقرب إلى الحيوانات منهم إلى البشر " هنا في موران، يمكن أن يجد الإنسان المال ويمكن أن يعيش لكن الناس هنا نوع آخر. إنهم أقرب ما يكونون إلى حيوانات الصحراء: مملؤون بالحرص والقسوة والخشونة. جلودهم سميقة وأعماقهم بعيدة لا تدرك " (180). ورغم هذه النظرة لهم إلا أن الحكيم يحاول وبكل جهد لديه أن يكون مثلهم أن يقدمهم في لبسهم وكلامهم ويحاول أن يجاري عاداتهم وتقاليدهم، وما ذاك إلا لأن هذه البلاد تمتلئ بالخيرات والأموال. " لقد اقترح الحكيم إنشاء جهاز الأمن والسلامة والحماية؛ لحماية الدولة مما يشاع من أفكار خارج حدودها، خاصة الأفكار الملحدة التي تريد الوصول إلى "بلادنا المقدسة لكي تقضي علينا وعلى ديننا" (181). اتخذ الحكيم الدين مطية

توصل بها إلى عامة الناس غير أن كثيرا ممن اتصلوا به فهموا مقاصده، وقد عبر شمران العتيبي عن ذلك في غير موضع بقوله: " ما هي كل صلاة صلاة ياجماعة الخير. وهذه الصلاة ما هي لله " (182) ، مشيراً بذلك إلى الحكيم الذي فعل ذلك ليتمكن من نقل سوق الخميس الذي ارتبط به العتيبي ارتباطاً روحياً إلى مكان بعيد. وقدم لنا سعد الأسطة وهو ممن اتصلوا بالحكيم صورة ساخرة لشخصية الحكيم، فضلاً عن تعويله على الخداع والتأمر بيدو الحكيم مادياً همه الوحيد من المجيء إلى صحراء النفط جمع المال، "ليس هناك قوة على وجه الأرض تقنعني أن الرجل بريء هو بالعكس نصاب ومحتال كبير" وزيادة على ذلك فهو منافق متناقض مع نفسه يقول شيئاً ويسلك عكسه. يدعي أنه يصلي ولكنه "كذاب... لا صلاة يصلي ولا بحاجة إلى واحد مثال، بحاجة للفلوس. وفوق ذلك" الصلاة والصوم وكل العبادات فحاح ومضائد ينصبها حتى يصيد بها الفلوس" (183).

هكذا كان الحكيم: همه الأول جمع المال؛ لهذا تقرب من السلطان وتظاهر بالتقوى ليحترمه الناس ويتقوا به وتخلق بأخلاق السكان وتحدث بلهجتهم رغم أنه يعتبرهم في قرارة نفسه من "الجم". هكذا كان الحكيم يجمع ما بين المتناقضات إذا كان من مصلحته الجمع بينها لتحقيق مآربه وطموحاته وإن كان ذلك على حساب غيره. وتظهر مظاهر الازدواجية في حياة السكان العاديين لموران فهم من البدو ودخلت على بداوتهم الحضارة والتكنولوجيا وهم بين هذه وتلك يجمعون ما بين الاثنين. نفسيتهم بدوية أصيلة ومع ذلك يريدون أن يتعايشوا مع الوضع الجديد المفروض عليهم فرضاً. لذا نرى أن أغلب عيشتهم يجمع ما بين القديم والحديث. ما بين الأصالة والمعاصرة. في كل ما يخص حياتهم: المأكل والملبس والمشرب والمسكن "كانت الإبل في ساحات الدور أو عند أبوابها. وكانت الخيام إلى جانب الغرف الطينية والحطب يتجمع في جانب من الساحات الكبيرة التي حضرت فيها الموامد وجُهزت. وغير بعيد في الجانب الآخر من الساحات...المطابخ....الخ" (184).

وقد ظهرت الازدواجية عند هؤلاء البشر كأحد نتائج الاغتراب. فالاغتراب قد يضع الإنسان موضع المتعلق بين القديم والحديث لا هو مع هذا ولا هو مع ذلك، يحب القديم ويريد أن يثبتته ويفرض عليه حديثاً يضطر إلى التعايش معه، ويكون الحل هو الجمع بينهما. ومثال ذلك شخصية العتيبي التي وضعت ضمن باب الاغتراب نلاحظ أنه رغم عداوة العتيبي للجديد، فإنه قد بدأ بالتعامل مع بعض عناصره بمقدار ما تقدم له هذه العناصر الماضي أو تذكره به. فهذا هو يحمل الراديو ويستمتع إلى برنامج البادية. لأن برنامج البادية الذي يسمعه كل خميس يذكره ويشده.

أما في السقوط إلى أعلى فالاغتراب والازدواجية صفتان لصيقتان بمعظم شخصيات هذه الرواية. فجميع الشخصيات تعيش عالم ما بعد النفط. تعيش عالم المال والسهرة وهي لا تستطيع الاستغناء عن هذا العالم بل دائماً تطلب المزيد.

فراس أولى الشخصيات المغتربة. شرقي شامي عاش في باريس مدة من الزمن ثم رجع إلى بلاده، إلى الشرق بشكل مؤقت. لكنه فجأة يقرر الاستقرار في الشرق. قرر الذهاب إلى الصحراء والرمال... إلى الخيام والخيل والبدو الرحل، يدخل فراس هذا المجتمع الجديد مجتمع البدو والخيل وفي نفس الوقت مجتمع المال والطموح. فراس المتقف المتعلم المطع على هذه الدنيا ذهب ليعيش بين أناس لم يجعل منهم المال إلا أشباه رعاة، وأشباه متقفين وأشباه جهلة وأشباه مفكرين. قوم انتقلوا بين يوم وليلة من القرون الوسطى إلى القرن العشرين بطائرة خاصة (185).

في وسط هذا المجتمع بدأ فراس يحس بالاغتراب، لقد وجد نفسه بين قوم لم تؤثر كثرة المال في أفكارهم ومعتقداتهم. تغيرت أشكالهم الخارجية. بدأ الترف والمال يظهر عليهم، لكنهم من الداخل كما هم لم يتغير فيهم شيء. كان أول ما لاقى فراس في هذه البلاد أن أخذت منه قيثارته لأنها من أعمال الشيطان الرجيم. بدأ فراس يرى المتناقضات في هذه البلاد. بدأ فعلاً وكأنه يعيش في القرون الوسطى في وسط هذه الصحراء. ولمس حقيقة أثر هذه الثروة المفاجئة على الناس وسكان الصحراء، وأوجه التغير التي تمخضت عن هذا الانقلاب المفاجئ في حياة هؤلاء البشر.

وكما رأينا سابقاً، جلب النفط معه من السيئات أكثر مما جلب من الإيجابيات – كما تصوّر الرواية – يقول فراس في رسالة إلى صديقه الفرنسي راوي القصة: " في وسط الصحراء.. في وسط ألوف السنين من صمت عميق: يؤنسه خريبر جدول آمن، في واحة وديعة وارقة. تمخض الجهل عن شيطان نبش في الأرض ثروة فأقام الدنيا وأقعدھا. لطحها من عرقه قذارة ومن دمه عاراً ومن زبده فسقا وكذباً ومجوناً". وكما قال صديق فراس " لا بد أن فراساً عاش في تلك الصحراء لحظات لا يستطيع المرء أن يكتب عنها. ماذا وجد؟ وبم أحس؟ (186). لم يعايش فراس في تلك الصحراء أي طبقة، بل الطبقة الأولى في ذلك المجتمع: طبقة الحكام والسلاطين، طبقة لا ترى في الدنيا من هو أفضل منها. طبقة تعامل السفراء على أنهم خدم لا أكثر. ولا يرون في الطبيب إلا مأجوراً يعالج ليأخذ أجره فقط من دون أدنى احترام. تتسلل الغربة إلى نفس فراس. وأبرز دلائلها هو الشعور بالوحدة، الوحدة المطلقة، إن شعوره بالوحدة يتعمق كلما اقترب من الناس، وتتوسع الفجوة بينه وبينهم كلما ازداد احتكاكه بهم، وربما يتصل بهذا المظهر مفهوم الاغتراب بمعنى "الموضوعية"، الذي يشير إلى نظرة الفرد للآخرين كشيء مستقل عن نفسه، بصرف النظر عن طبيعة العلاقة التي تربطه بهم" (187). كان يحب أن يلجأ إلى الصمت كأن الصمت هو الملاذ الوحيد لتلك الغربة لم يكن اغترابه وخصوصاً في البداية عادياً. عالم آخر بعيد كل البعد عن عالمه. عالمه الغربي أكثر منه عالمه الشرقي. هذا الشاب الذي قضى معظم حياته في باريس يعيش في الصحراء والرمال ويرى ما لم يكن يتوقعه.

ولم يخفف عليه هذا الشعور سوى تلك الصحبة والصدقة الجديدة في ذلك العالم. صداقته مع قطر الندى وميساء حتى لم يبق موضوع لا يستطيع أن يخوض معهما فيه. فكانت شكواهما له سبيلاً ليزيح عن نفسه ما فيها من ألم مبعثه هذه الغربة التي يعيشها. حتى المواضيع الجنسية لم يكن هنالك أي حرج من مناقشتها فكانت قطر الندى تشتكي له من معاناتها مع زوجها جلال. وكذلك هو لم يجد حرجاً من إبداء رأيه ومناقشتها في شكواها وإخراج ما في نفسه من كبت في نفس الموضوع. هذه العلاقة بدأت تخفف من

شعور الاغتراب عند فراس بدأ يحس أنه من هذا العالم ومخلوق فيه. كان من النوع الذي يستطيع التحكم، إلى درجة ما، بمشاعره إلا في بعض المواقف. ولم يعاوده الشعور بالاغتراب ويقوى عنده حتى جعله يفكر بترك الصحراء والعودة إلى باريس سوى خيانة تلك الصديقات له وغدرهن بتلك الصداقة التي أخلص لها فراس.

لم تكن قطر الندى وميساء ولا حتى زوجة فراس بمعزل عن الشعور بالاغتراب. فقطر الندى رغم ما تتمتع به من جمال وثقافة إلا أنها دائماً تحس بالنقص وبحاجتها إلى المزيد. كذلك أختها ميساء، فرغم ما تتمتعان به من جمال وثقافة ومال إلا أن طموحهما دائماً يحلق في أمور بعيدة تفوق الحد. وأن تحلم المرأة بأن تكون أميرة أصبح هو الشاغل الأول والأخير لكل واحدة منهن. وعلى الرغم من أن قطر الندى أصبحت أميرة إلا أنها لم تستطع المحافظة على هذا اللقب. لقد كان زواجها من هلال هو ما أعطاهما الحق في هذا اللقب ومع ذلك لم تكن لتستطيع المحافظة على هلال ليبقي لها هذا اللقب.

إذن كان فراس يعبر عن غربته بالصمت الناتج عن شعوره بالوحدة وقطر وميساء تعبران عنه بعدم الاكتفاء بشيء مع عدم المعرفة الحقيقية لما تريدان. هما تريدان المال والجاه والشهرة بالتأكيد. لكن ماذا بعد ذلك وإلى أين تريدان أن تصلا؟ حتى هما نفسيهما لا تعرفان الإجابة. قطر لا تريد هلالاً؛ لأنها لا تحبه لكنها تريده لأنه يجعلها أميرة. تعرف أنه يحب امرأة أخرى ويعشقها فلا يضايقها غير تفكيرها في أنه سيطلقها. أما زوجة فراس فلم تكن أقل منها غربّة، و إذا كانت قطر وميساء لا ينقصهما الجمال. فإن الجمال كان سبب ما تعانيه زوجة فراس من اغتراب، كانت تعلم أنها ليست جميلة، وكانت تشعر بالنقص خصوصاً أنه ليس لديها ما يغطي هذا النقص رغم تفاخرها بعائلتها، لكنها كانت تعلم أنها لن تصل في يوم من الأيام لما وصلت إليه قطر وميساء. لذا كانت تستلذ أن تعرف أنهما تغوصان في الخطأ، لا بل وكانت تيسر لهما ذلك. فكان بيتها مكاناً لالتقاء قطر الندى بعشيقها، وليس البيت فقط، كانت تستقبلهما في غرفة نومها حتى يمارسا العشق فيها، وإذا كان الانحراف هو ما آل إليه

وضع قطر الندى والإهانة وانحطاط الكرامة لميساء، فإن هذه لم تكن بمنأى عن مثل هذه النهايات. فكثرة تفكيرها بما هي فيه جعلها تكثر من الخطأ، وكثرة الأخطاء جعلها تفكر بأن تتخلص من زوجها لأنه أصبح عقبة في طريق طموحها. وكانت تسعى لأن تصبح محبوبة وعشيقة مثل قطر الندى وميساء وبوجود فراس لن يتيسر لها ذلك وكانت النهاية أن اختارت الطريق الخطأ واللذة في نفس الوقت..

أما الازدواجية فتبدو جلية واضحة في " السقوط إلى أعلى"، وقدّمت أحيانا بطرق مباشرة، كما اتخذت أشكالاً متعدّدة يمكن إيجازها ضمن المفارقات التالية:

من خلال حياة فراس في الصحراء يتمكن من الكشف عن حجم التطور الذي أصاب الحياة؛ تحول سلبي، يراه فراس مدعاة لاحتقارهم، واحتقار حياتهم، ويكشف — من خلال المقارنة بين الشرق والغرب — حجم التخلف الذي تحياه العقلية العربية التي أحالتها الثروة المفاجئة إلى مستهلك باذخ، دون أن تتعكس عليه حضاريا وثقافيا وعلميا، مع ضرورة التنبيه إلى أن الرواية تصوّر أفقا تخيلها المؤلف لتلك البيئة النفطية فور تدفق هذا النفط، وتصور موقف الإنسان الصحراوي، الحاكم على وجه الخصوص بوعي حدوث هذا الانقلاب المفاجئ.

إن التحول بهذه السرعة المذهلة كان يفوق قدرة الإنسان العربي العقلية [الأمير هنا]، فعجز عن استيعاب هذا التحول؛ مما أحدث في سلوكه اضطرابا واضحا وانحرافا جليا. فوجود ثقافة صحراوية بدائية فيها من السلطة بقدر ما فيها من التخلف، وانعدام المعالم الحضارية، وبروز ثروة نفطية هائلة، كان من المفترض أن تغير معالم الحياة البدائية والتخلف. غير أن هذا الأمر كان صعب التحقق بسبب مركبات النقص الكامنة في أعماق العقل، فبدت مظاهر الحضارة في إطار بدائي — مزيجا غير متجانس شكل لوحة متنافرة الأشكال والألوان غير مريحة للناظر، فضلا عن التعايش معها. لقد أصبحت البيئة بفعل العجز عن التكيف والتعامل العقلاني مع مفردات الحضارة أمرا غاية في البشاعة، أو لوحة (كاريكاتورية) مدعاة للسخرية!

ولا يقف الأمر عند هذا الحد، فاللياقة والثراء والإمارة تتطلب سلوكا حياتيا رافيا، بيد أن ذلك لم يحدث؛ إذ ظل الكثير من العادات القديمة يسير جنباً إلى جنب مع الحياة الجديدة، بل ويعمل على إفسادها في أغلب الأحيان؛ فنرى قطر الندى تلمح بطريقة نقدية ساخرة إلى طريقة تناول الطعام " ... لكننا رغم ذلك نأكل بالشوكة والسكين... ولا تسمح رجالنا لحاها بالدهن الذي يقطر من أيديها" (188). فنوع الطعام وانعدام شروط اللياقة، بل أحيانا شروط النظافة جعلتها الرواية ملامح من صورة البدوي الذي حافظ عليها بعد الثراء. ويقودنا هذا التجاور المتنافر إلى الإشارة إلى مشهد يتعلق بتناولهم (هلال ومن معه) الطعام في أرقى فنادق أوروبا، ففي جنيف يقول السارد فيما يشبه "التهكم السادي":

"... أمضوا الليل يلهون ويتسامرون، يضحكون من ولائم جعفر التي فرض عليهم تناول الطعام فيها في غرف النوم خوفا من أعين المراقبين، ولائم لم يتتوع فيها الطعام... خروف (محشي)(!) بالأرز، طبق كبير يحتوي من الطعام ما يكفي لعشرين شخصا... وفي كل وليمة يُعيد جعفر على مسامعهم قصة المشقة التي عاناها طاهي الفندق لاستحضار السمن العربي... كلما انتهوا من تناول الطعام يطلب إحضار القهوة" (189).

هذا المشهد ليس سلوكا فرديا بل هو سمة عامة؛ إذ نجد هلالا في باريس يدعو قطر الندى إلى العشاء في غرفته أيضا: "كان قد أعد خروفا محشيا(!) بالأرز... إنما هلال فطن ... يحمل دوما صفيحة من السمن العربي بين حاجيات سفره" (190).

أما الأماكن الجميلة فيمكن دخولها بل يمكن اقتناؤها طالما يتوفر المال، ولكن هل يستطيع الأعرابي الخارج توا من أعماق الماضي أن يقدر قيمة الجمال، ويحافظ على ما في الأماكن من تحف فنية نادرة؟ هل تستوعب منظومة قيمه التي تشكلت عبر مئات السنين القيمة الفنية للتحف والآثار؟ يروي النص قصة شراء جعفر (حاجب الأمير) قصر لوزان في باريس: "كيف اهتدى جعفر إليه... جعفر وأمثاله لا يميلون إلى ما هو من الطراز القديم... دراهمهم لا تمس سوى الجديد والتجاري... القبيح منها... هل تتبه

إلى فساد ذوق قومه، فأراد بهذا القصر أن يبرهن على ذوق جديد؟" (191)، بيد أن الرواية تكشف فيما بعد أن العقلية البدائية لا تقدر قيمة الفن؛ فتتعامل مع محتويات القصر بصورة "همجية"، إذ تُفسد كل مظاهر الجمال فيه متكئة في ذلك على اعتقادات دينية، ولا ترى فيه سوى مكان فسيح أو "دار واسعة للإقامة"، بل أصر الشيخ على أن يربي فيه ماعزا؛ لأنه لا يثق بحليب الأسواق (192)، إن امتلاك المال لم يمكن الأعرابي من التعامل مع هذا الصرح الحضاري التاريخي النفيس، وهو واحد من أجمل قصور عصر ما بعد النهضة في أوروبا، فأفسده وغير معالمه. قاموا بإزالة رسوم لنساء عاريات وحيوانات رسمت مباشرة على الجدران، وحطموا التماثيل أو أحرقوها بحجج دينية. ولما سئل: لماذا لم يعطوا هذه الكنوز إلى من يحبها أو يبيعوها؟ أجاب باستغراب: " نفرق الحرام على الناس؟ نبيعها؟ ونأخذ مالا قدرنا؟" (193)، وهنا تختلط المعايير؛ ففي حين تهدر الأموال — كما سنرى — على النساء والخمرة، نجد أن أثمان هذه التحف يغدو محرما! وثمة مثال آخر على هذه المفارقات، فحين يصل فراس إلى المطار متوجها إلى الصحراء، يصادر رجال الأمن قيثارته لأنها من أعمال الشيطان الرجيم، والنغم رجس وحرام (194).

ويتراءى للقارئ أن الكاتب لا يقف عند المسائل الدينية في عالمه الروائي؛ إذ لا يبدو الدين محركا لسلوك شخصياته، ولا يمثل وزعا هاما، ولا نجد إشارة إلى ممارسات دينية حقيقية كالحج والصيام والصلاة، أو إنفاقا على شكل الزكاة، أو مساجد. ويبدو فهم هذه الفئة للدين سطحيا شكليا، وليس مبنيا على قناعات... ومع ذلك فهي تتخذ الدين — كما رأينا — حجة للقمع والاستلاب وسرقة أموال الناس. يرسل فراس رسائل إلى صديقه الراوي يصف في إحداها مشاهد مؤلمة تعود إلى مراجع دينية؛ إذ يقام حدّ السرقة على الفقراء، وقد عبر النص عن هذه المسألة بطريقة غاية في المباشرة" في وسط الصحراء ، يقبض على إنسان جاع فسرق، ولا يقبض على غيره من سارقي الملايين... إن الذراع المبتورة تغمس في الزيت الحامي حتى ينقطع الدم، وقد يكون ثمن الزيت أكثر مما سرقه ذلك الإنسان من مال" (195).



وفي مقابل هذا الإذلال والقمع للناس العاديين تقدم الرواية أنماطا عجيبة من البذخ والإسراف والمتاجرة بالقيم الإنسانية والرق والعبودية. يقضي الأمير والمقربون منه أيامهم العادية في اللهو والمجون، ونقرأ في الرواية حوارا بين فراس والراوي يكشف عن التناقض في حياة هذه الفئة:

- بماذا كانوا يتسلون في هذا البلد النائي؟

- وهل هنالك سوى المقامرة والجنس؟

- الجنس؟ وهل هذا متوفر؟

- بكل أشكاله، وجميع طرقه ... لتلك الطبقة على الأقل (196).

ولا يخفى هنا أن ربح المال لا يشكل هاجسا لدى هؤلاء، ولا تسبب خسارته عبر اللعب به ألما، مع احتفاظ هذين المسلكين بكل الدلالات من حرام وعيب ومخالفة للقانون ودمار، ويضاف إلى ذلك الإدمان على شرب الخمرة. وينسى هؤلاء عندها تعاليم الدين التي يجلدون الناس بها. وترصد الرواية أيضا مظاهر الترف لكي تفضح الاتجار بالقيم الدينية، وتكشف عن تجاوز معاد بين مفردات الحياة الجديدة والعقلية المتخلفة التي لم تستطع أن تواكب التقدم البشري.

تفرض شخصية الأمير ومكانته نمطا معيناً من حياة البذخ، فعندما تزوج الأمير من قطر الندى قيدها بالماس والذهب في حفل " يزخر بالبذخ والمال والبلادة... حصل جميع من كان حاضرا على الهدايا... استل هلال من جيبه دفتر شيكاته، ووقع على ورقة أعطاها إلى قطر الندى طالبا منها أن تملأها بالمبلغ الذي ترتثيه. هل هذا تحداً؟ أم أنها طريقة الأمراء في احتقار المال؟" (197)، ويبدو أن الأمير لا يحتقر المال، وإنما أراد التعبير عن قدرته على شراء البشر. ومن مظاهر الترف المرافق بقتل الناس وقطع أيديهم الرحلات الترفيهية إلى الخارج والداخل. كل أوروبا أصبحت مسرحاً لزيارات الأمير وحاشيته ولفترات طويلة، وتمارس فيها كل مظاهر البذخ والإسراف واللهو والزنا والسكر. أما الترفيه الداخلي فيأخذ شكل الرحلة إلى "البر" الذي كان إلى عهد قريب جدا جزءاً من حياة هذا البدوي: "الخروج إلى البر رحلة إلى البداية لا يقرر

مدتها سوى السلطان واتسراحه. رحلة فيها الصيد والمتعة وزوال الكلفة والرجوع إلى ما كانت عليه الحياة في البلاد قبل مئات السنين... تحركت سيارة السلطان، يتبعها سيل من سيارات الأمراء. بينها ما طليت أجزاءها بالذهب... شاحنات تحمل المؤونة... وأخرى تحمل المتاع... مئات الخيام الرائعة... خيل عربية أصيلة... بنادق منقوشة بالذهب... صقور مدربة.. سيوف مرصعة بالأحجار الكريمة" (198). ويتضح مما سبق أن الحياة العربية قائمة على المفارقات: الادعاء بالتدين وخرقه سلوكا، الجمع بين مفردات الحاضر المستورد والعيش في ظل منظومة قيم بالية لا تتناغم والموجود، حق الملكية للأشياء والناس وحرمان البشر من أبسط حقوقهم، التهام المنتج الغربي واستهلاكه دون أية محاولة لفهم هذا المستهلك أو الشروط التي أفضت إليه، فضلا عن هامشية العقلية العربية وعدم قدرتها على المساهمة في الإنجاز الإنساني، أو على الأقل تطوير المجتمعات العربية وتهيئتها للإبداع الذي ربما يكون بديلا نافعا عند نزوب النفط، وانهيار المدن، كما عبرت عنه "مدن الملح" في موضع سابق من هذه الدراسة.

## الفصل الرابع

### الطبقية

إن المجتمعات النفطية في أغلبها مجتمعات بدوية، أو على الأقل الأصل فيها بدوي. وهذه المجتمعات لم تكن مجتمعات معقدة فالمستوى المادي متقارب بين فئات هذه المجتمعات، والأعمال متشابهة تعتمد في معظمها على نفس المصادر إما الزراعة والماشية أو الاعتماد على التجارة من خلال القوافل التجارية؛ لذا امتازت هذه المجتمعات بالبساطة (199).

لم يكن مجتمع بهذه البساطة ليغري أيا من سكان المناطق الأخرى ليأتي ليستوطن فيها؛ لذا كان كل ساكني هذه المناطق هم أهلها الأصليين الذين لم يختلطوا بغيرهم من السكان.

كان لكل قبيلة شيخ أو أمير وهو ما سمي فيما بعد السلطان. وربما شكّلت هذه الشريحة الاجتماعية الطبقة الوحيدة الموجودة في هذه المجتمعات. الشيخ وسكان قبيلة أو السلطان والمحكومين. لكن حتى هذه الطبقة لم تكن بالمعنى الفعلي. فالسلطان في مجتمع "مدن الملح" قبل ظهور النفط لم يكن إلا واحدا من أفراد القبيلة. كان يحس بهم ويشعر معهم ويساعدهم ويقف بجانبهم. كان يعاني مما يعانون.

جاء النفط وجاء معه التغيير، فهل بقيت هذه المجتمعات على حالها؟ هل بقيت طبقته كما هي؟ وإن بقيت كما هي، أو تغيرت هل حصل التغيير على نوعية الطبقة ومن ينتمون إليها؟ لقد غير النفط الكثير من المفاهيم والمصطلحات وأدخل الجديد منها كذلك. أدخل شرائح اجتماعية لم تكن موجودة. لذا ازداد عدد طبقات المجتمع مع ظهور النفط وأهم هذه الطبقات جميعا طبقة الوافدين الذين لم يظهروا بكثرة إلا مع ظهور النفط. هذه الطبقة الدخيلة على المجتمع المحلي جاءت لتجد لها مكانا وسط هذه الثروة الناجمة عن هذا الذهب الأسود.

قدمت " شمروخ " الشرائح الاجتماعية، او ما يمكن أن يُسمّى تجوّزا الطبقات من خلال الحديث عن مواقف وردود أفعال – كما رأينا في فصل سابق – فالوجود الأجنبي، زيادة على محاولات بعض العرب تقليد الحياة الغربية، أفرز ردود أفعال متباينة تمثلت في ثلاثة اتجاهات: فالسلطة السياسية ومساندوها – شجعت الاستثمار النفطي والتدخل الأجنبي، واستند هذا الدعم على أن النفط يقدم كثيرا من الأمور التي تحسن الظروف الحياتية في الجزيرة. أما الاتجاه الثاني فيرفض النفط والوجود الأجنبي معا، لقد أطلق سكان "الطاهرية" - وهي العاصمة التاريخية التقليدية للجزيرة- على النفط اسم " شمروخ"، وهو اسم لجنّ؛ لاعتقادهم بأن النفط تحت سيطرة الأجنبي ولا يفيد منه أبناء الجزيرة. وثمة اتجاه مثله الجيل الجديد من أمثال الأمير همّام وشهاب قائد العمال، وهؤلاء لا يرفضون النفط، ولكنهم يقاومون هيمنة الأجنبي على الشركة والشؤون الاقتصادية. العمال طالبوا بأن يكون لهم دور في الشركة. ويبدو أن تيمور الذي يدين التدخل الأجنبي، ويدعو إلى تبني القيم الإيجابية في الحياة الغربية- يدعم، بوضوح، أفكار الاتجاه الثالث. وهذا الاتجاه يُبدي اعتراضا كبيرا بالحضارة العربية الإسلامية، ولكنه يعتقد بأن التعليم ضروري لإحياء الأمة العربية؛ ومن هنا يكون من الحيوي الاقتراض من الحضارة الغربية.

ونستطيع اعتمادا على ما سبق أن نقسم طبقات المجتمع بعد ظهور النفط إلى عدة

طبقات رئيسة ألا وهي:

١- الحكام والسلطين

٢- كبار رجال الدولة

٣- الوافدين

٤- طبقة العاملين والمضطهدين

#### 1.4- طبقة الحكام والسلاطين

هذه الطبقة المتنقلة عبر الأزمان انتقلت من زمن قبل النفط إلى زمن بعد النفط: " في ذلك الزمن كل شيء مطروح لإعادة النظر لإعادة القسمة، الأفكار المناطق الدول حتى الملوك والسلاطين والأمراء الصغار" (200). تلك الطبقة الحاكمة رغم وجودها قبل النفط إلا أنه وجود مترعزع لم يستند إلى قوة معينة تسانده بل يعتمد على القوة. لم يكن هنالك من يتدخل في هذا التغيير السريع في الحكم. بل كما قلت يعتمد على القوة القوي يستولي على الحكم و إذا ظهر أقوى منه أزاح السابق وجلس مكانه: " الملوك والسلاطين ومعهم الجواكر يخترعون في التو واللحظة ليتولوا الأمور أو يحكم عليهم بالنفي إلى الجزر البعيدة لكي يموتوا هناك منسيين و بصمت " (201).

وهذا لا يعني انتفاء التدخل الخارجي نهائيا، إلا أنه تدخل بسيط يعتمد على المصلحة. فقد كانت المنطقة تابعة لبريطانيا ولم تكن بريطانيا لتتدخل بما ليس لها مصلحة فيه. لكن إذا لمست أي تمرّد من جهة معينة ومحاولة الخروج عليها عندها تتدخل. وأحيانا تتدخل بقوة فهي لم تتوان عن إرسال مجموعة من المستشارين والرجال الذين يمكن الاعتماد عليهم ليس فقط في رماية المدفعية والرشاشات وإنما أيضا في أمور أخرى كثيرة. ولم تنس أن ترسل معهم الأموال والهدايا (202). جاء كل هذا فقط لمحاولة مزهر بن سحيم، مثلا، طلب المساعدة من أعداء بريطانيا. فمأن ذهب الأخير إلى أعداء بريطانيا طالبا العون والمساعدة حتى انتفضت بريطانيا وتدخلت لمنع هذه الكارثة. لكن هذا التدخل و إن حصل فهو قليل يعتمد على المساس بمصالحها الرئيسية. أما التدخل في الشؤون الداخلية لهؤلاء البدو فلم يكن موجودا، وكذلك الأمر في التدخل في حياة السلطان الشخصية، بل كان السلطان يعيش بطريقته الخاصة. يتعدى على أي أرض يريدتها. ويضيفها لملكه يتزوج، ينتقل من منطقة إلى أخرى ليزيد من عدد زوجاته و أولاده (203).

كان يتخذ المستشارين وربما اتخذهم من الأجانب، فها هو السلطان خزعل يتخذ من هاملتون مستشارا، لا بل ويزيد على ذلك بكثير؛ حتى أطلق عليه السلطان لقب

الصاحب، وحتى الأمراء لهم مستشاروهم الخاصون وقد يتخذون حرسا لهم. فالأمير فتر يتخذ مستشارا خاصا وحارسين يذهبان معه في زيارته(204).  
فقد كان للأمراء ميزات أقرب ما تكون لميزات السلطان نفسه فهم على الأغلب أولاد السلطان لذا كانت لهم الكلمة المسموعة بعد كلمة السلطان:  
" فالسلطان الذي لم يكن يترك لأحد أن يتصرف أو يقرر في الفترات السابقة. أصبح أنسانا آخر في المرحلة الجديدة "(205).

وعلى الرغم من أن النفط ليس موجودا إلا أن الأحوال المادية للسلطان ليست سيئة، فالسلطان لديه الكثير من الموارد المالية التي تدر عليه الربح وأهم هذه الموارد هو ما يحصل عليه من غزو المناطق الأخرى. ويظهر أثر غنى السلطان من خلال الأمراء والأميرات وزوجات السلطان. فزوجات السلطان كل تحاول التقرب أو بالأصح تحاول أن تثبت أنها الأقرب للسلطان ودليل ذلك قدرتها على طلب أي مبلغ تريده. وهذه الزوجات بالطبع يسكن في قصر مشترك. أي أن السلطان وحتى قبل ظهور النفط لم يكن ليسكن في أي مكان بل في قصر فخم يلفت الأنظار إليه " كان القصر شيئا عجيبا. عشرات الأجنحة والغرف التصق بعضها ببعض في آخر لحظة. على الجوانب غرف الحرس والخدم وفي الوسط البناء الرئيسي "(206). وهذا ليس القصر الوحيد الذي يملكه السلطان فالسلطان قصور في كل مكان. كلما غزا مكانا جديدا وأعجبه المكان اتخذ فيه قصرا لرحلاته العابرة. أو تمضية إجازته الخاصة مع بعض نسائه.

إلا أنه وبالرغم من كل هذا البذخ إلا أن هذا لا يعني أن أموال السلطان لا تتأثر بالأحوال العامة. لا بل إن هذه الأموال تقل وربما بصورة كبيرة في حالات القحط وقلة الأمطار. فإذا أجدبت الأرض و أحس الناس الفقر وضافت بهم الدنيا فإن هذه الطقوس سريعا ما يصاب بها قصر السلطان. يظهر النقش وقلة الصرف واختفاء بعض ملامح البذخ، فالقحط والجراد وقلة المطر لا تؤثر على العامة فقط إنما يصل تأثيرها إلى السلطان نفسه.

وليس للسلطان مصادر دائمة يعتمد عليها في جني المال فلا صناعة ولا تجارة، إنما الحرب والمعارك. وهي وإن كانت مصدرا مالياً، إلا أنها أيضاً إرضاء طموح؛ فالبدو يجدون في الحرب والمعارك لذة وبالقوة إرضاء لجبروت السيطرة. والسلطان يبقى بدوياً، وإن كان سلطاناً فإنه يمتاز بما يمتازون به.

هكذا هو السلطان قبل أن يمتلك النفط. فهل طرأ تغير على حياة السلطان أو على نفسية وطبيعة السلطان بعد ظهور النفط. أجل لأن السلطان هو أول من سهل عملية البحث عن النفط لأنه كما ذكرنا بدوي والبدو يحبون المال ولا يهتمون لمصدره أو طريقة الحصول عليه، فقد قال عنهم هاملتون الإنجليزي أو صاحب:

" هؤلاء البدو لا يعرفون سوى شيء واحد: المال. المال يدير رؤوسهم ويجعلهم أطوع وأسرع من الماء على منحدر ويحولهم إلى فم لا يعرف غير كلمة واحدة: نعم فإذا امتلكوا المال أصبحوا كالكلاب على العظام. لا أحد يستطيع أن يقترب منهم. لا يتكونها ولا يعرفون كيف يتصرفون فيها" (207).

وكما قلنا فإن السلطان هو واحد من هؤلاء البدو يحب المال ويحب الحصول عليه.

مر معنا في فصل سابق بان أول عبارة قالها الأمير، وهو المسمى من قبل السلطان، حين جاء الناس يشكون من وجود الغرباء في ديارهم للبحث عن النفط، قال لهم: " ستكثرون يا أهل وادي العيون أغنى الناس وأسعدهم وكان الله لا يرى غيركم" (208). فهل فعلاً ما يهم الأمير أو السلطان هو مصلحة أهل وادي العيون؟ أو هل فعل ذلك وسهل أمر هؤلاء الغرباء فقط من أجل المصلحة العامة والطبقة العادية أم من أجل مصلحته الشخصية؟، وقوله: " وكان الله لا يرى غيركم " هل يقصد فعلاً أن خير هذا الجديد لا يأتي إلا على أهل وادي العيون ولن يصل لغيرهم لأن الله نظر إليهم ولم ينظر لغيرهم؟. والسلطان أو الأمير بدوره يسهل هذه المهمة أو سهل وصول الخير لهؤلاء الناس عن طريق تسهيل استيطانهم بالأرض البدوية. لكن نرى بعد قليل أن القصد يتكشف حين يقول الأمير: " الخير يا جماعة الخير إذا عم عم" (209).

وهذا هو القصد: الخير إذا عمّ عمّ. هذه هي السياسة فلم يحاول الأمير فهم الإصرار وراء هذا الوجود. أو فهم نفسية هؤلاء الناس لأنه مقتنع بأن هناك أموالا ستأتي من وجود هذا الدخيل، أموالا إذا أفادت فأول من ستفيد هذا الأمير، ثم على رأي الأمير يعم الخير على الآخرين.

جاء النفط وتدفق وكثرت الأموال ووصلت ليد السلطان والأمير. المال يزداد والعقل كما كان. بدوي لكنه يملك الكثير من المال، والمال الزائد عن الحاجة يوزع على الرعية. وكل ذلك جاء فجأة ودون سابق إنذار.

هل غير هذا المال من تفكير السلطان؟ هل فتح السلطان مجالات جديدة من الكسب؟ أم أن كل ما فعله المال هو زيادة عدد نساء السلطان وزيادة بذخ تلك النسوة، وزيادة عدد القصور والوزراء والمظاهر الباهرة.

ويمثل الأمير هلال - في السقوط إلى أعلى - نموذجا آخر؛ فهو أمير ابن سلطان وأخ لسلطان:

" ولد بين جدران قلعة كبيرة من طين. وشب على الرمال بين قوم سعيد منهم من لبس حذاء. حتى إذا أغدقت الطبيعة من ثروتها على والده الشيء الهائل ناب أمه وهي المحظية الأولى لدى السلطان من الثراء الشيء الوفير." (210)

هذا وقع المال المفاجئ، فجأة يتغير الإنسان من حال إلى حال. رغم أنه ابن سلطان إلا إن المال لم يكن متوفرا وعلى حين غفلة جاء المال الكثير وكان أول ما فعله المال أن جعل زوجة السلطان ثرية، فهو مال زائد فلا ضير إن أعطيت مالا كثيرا ما دام زائدا عن الحاجة.

لقد عبر وليد حجار عن هذا التحول ولا سيما في حياة الأمراء والسلاطين بعبارة موجزة جسدها في شخص الأمير هلال، ونتيح الاطلاع على غرابة التحول وسرعته، إذ قال: " ما ذنب هلال سوى أن ثراه أتاح له أن ينتقل من القرون الوسطى إلى القرن العشرين بطائرة خاصة" (211). ماذا غير المال في عالم السلطة والتسلط. لقد أنفق المال على الزوجات وشراء ما لا يلزم والولائم الكثيرة دون مناسبة. فهل كان



ذلك حلا لمشاكلهم أم كما قال هاملتون " فإن الأموال لا تحل مشاكلهم إنها تقسدهم، تجعلهم أناسا غير ناعين لا للعمل ولا للحرب " (212).

هذا الأمير هلال تزوج من قطر الندى: " زفت قطر الندى إلى هلال في حفل يذخر بالبذخ والمال والبلادة " (213). من الممكن أن نفهم البذخ والمال لكن ما هي البلادة التي زف بها هذا الأمير. هل هي بلادة من حوله في الحركات والتصرفات نتيجة لفقدان العقل أم لأن هذه صفة أصيلة فيهم ؟ أم أنها أجواء عامة نتيجة الفرحة والصخب وعدم التفكير. لكن المهم هل أثر المال على عقل هؤلاء الأمراء والسلاطين؟ هل أثر المال في تفكير الأمير هلال وهو كما يصفه الناس " رجل متقف يتكلم الإنجليزية ويقضي معظم أيامه في أوروبا " (214)؟ أم أن البيئة الأصلية التي أفضت إلى انتقاله بالطائرة الخاصة إلى هذا القرن ما زالت عالقة في عقله؟ اختلف هلال مع زوجته خلافا عاديا يحدث بين أي زوجين، لكن ما كان رد هلال المتقف الذي يقضي معظم أيامه في أوروبا، ماذا قال لهذه الزوجة ؟ قال: " أحذرك... أحذرك أن تنسى من أنت أو تنسى أنك تخاطبين أميرا... وابن ملك ". (215)، يعير زوجته بأنها امرأة، وكأن المرأة مخلوق يقل عن مستوى الإنسانية. وهي حين تجادله ترقى لهذا المستوى البشري وتنسى كونها امرأة. ابن أوروبا وابن الحضارة والتقدم يذكر زوجته وهي أقرب الناس إليه بأنها تخاطب أميرا وابن ملك. وكأنها ليست زوجته بل جارية ونسيت نفسها وهي تخاطب سيدها فتعدت الحدود. أصبح ثريا، هذا صحيح، لكنه لم يغير العقل الذي لديه عقل القرون الوسطى نفسه انتقل إلى القرن العشرين ليعيش فيه.

أما السلطان خزعل فقد كان المال وسيلة جيدة ليسكت إخوته عنه حين تولى السلطنة فقد كان يغدق عليهم المال دون تردد وبلا حساب (216). هذا السلطان الذي حرم لبعض الوقت من هذا المال أيام أبيه وهي كما يصفها منيف "كانت تحده نظرات أبيه أو زجره وبعض الأحيان امتناع أمين الخزنة عن تلبية طلباته. بحجة أن الأموال المودعة لديه قد نفذت" (217). هذه هي الحجة الأساسية للمال عند هذا السلطان إسكات كل معترض. وهي وسيلة ناجحة ونافعة فالمال في رأي السلطان وغيره قوة ما بعدها

قوة؛ يستعذب المرء الذل مقابل اكتشاف هذه القوة بهذه المفارقة العجيبة. لكن في تلك البلاد كانت تقام المشاريع التي يتابعها السلطان نفسه فهو يرغب في ان "يتفقد المشاريع التي تنفذ وأن يسأل المهندسين وأمرء المناطق عن المراحل التي وصلتها هذه المشاريع وما إذا كانوا بحاجة إلى اعتمادات إضافية أو إلى مساعدات من أي نوع" (218). وهي مشاريع غير واضحة المعالم والأهداف! أهى مشاريع خاصة بالسلطان أم هي مشاريع عربية بحثة أنشأها السلطان ومن حوله. هل فكر السلطان فعلا في مشاريع ضخمة يستثمر فيها الأموال، أم هي مشاريع أجنبية للتقريب عن النفط، والسلطان فقط حارس عليها يتفقد ما بين الحين والآخر ليطمئن على حصته؟!

وتطالعنا شخصية جعفر، أحد أبرز أصدقاء الأمير هلال في رواية حجار هذا الإنسان بدوي خليجي، كما ورد في الرواية، يملك الكثير من المال بحكم عمله عند أميره، وإذا ما أخذنا جولة في قصر هذا الأمير الذي يعمل عنده جعفر ماذا نرى؟ نرى - كما رأينا في فصل سابق - عقلا بدويا بحثا ينسف حضارة كبيرة. نجد قصرا دمر من الداخل وخُلعت الجدران لأن عليها رسومات وأشكالاً رأى جعفر أن الدين حرمها. شوه القصر بالكامل لأنّ العقل البدوي لم يستوعب هذا التحضر وهذا التراث. قشرت الجدران بالكامل ووضع بدلا منها نايلون ليغطي العيوب الناتجة عن القشر (219). ثم لننظر إلى هذا الحوار البسيط بين جعفر وفراس بطل روايتنا حين سأل فراس جعفرا فيما إذا كانت هنالك تحف أو تماثيل فنية في القصر حين اشتروه أجاب جعفر: "طبعاً، طبعاً... كانت هنالك تماثيل وأصنام كثيرة.. الرخام والمعدن والخشب وصور صغيرة الحجم تملأ الجدران" (220). وحين سئل أين ذهبت؟ أجاب: "لقد حطمتها جميعاً، طبعاً... وأحرقنا القابل للحرق منها" (221).

ثم إنّ هذا الأمير الذي يمتلك هذا القصر في جنيف يربط ماعزاً في حديقة هذا القصر. والسبب أن هذا الشيخ الكبير صاحب القصر لا يثق بحليب الأسواق وبدلاً من ذلك استحضّر هذه الماعز من بلاده كي توفر له الحليب الطازج؟ (222). مال كثير، قصور فخمة، سفر إلى الغرب، بذخ زائد، تداخل بالغرب. ورغم ذلك يقبع هذا الأمير في

داخله ويأبى تقبل عقلية الحياة الجديدة وقيمها العلمية، لم يتغير في عقول هؤلاء إلا التفكير الزائد في كيفية صرف هذه المبالغ الطائلة وفي كيفية إظهار القوة المستمدة من هذه الأموال.

لقد هدفت من إيضاح بعض المفارقات هنا- ولو على سبيل التكرار- للتدليل على أن النفط لم يخلق وعيا طبقياً للأغنياء. ولو كان الأمر على النحو الذي نراه في بلدان غنية كثيرة، لوجدنا كثرة الاستثمارات، وإنشاء المشاريع الضخمة التي تدرّ ربحاً على أصحابها، وتعمل في الوقت نفسه على تشغيل الناس وتخلق مجتمعاً متحضراً. وقد أكد هاني الراهب في روايته، في مواقع كثيرة، على مسالة ثبات القيم عند الطبقة العليا المتسلطة، التي لا يتجاوز وعيها التفكير في الاستحواذ على السلطة والمرأة والمال، وهي مفردات تشكل إيقاعاً ملموساً في الروايات التي جعلت النفط محورياً لها، أو أحد محاورها. إن تعاون أبناء هذه الطبقة مع الأجنبي فضلاً عن اللجوء إلى السرقة واستغلال العمال والنفاق والإجرام، في بعض الأحيان، جعل هذه الطبقة تنثري على حساب الأكثرية، ومكّن لها مواقع متميزة في خارطة المجتمع. ويجب التأكيد على أن تفجّر الثروة وتسارعها بشكل غير طبيعي ترك بصمات واضحة على القيم الأخلاقية، وازدياد التنافس غير المشروع بين أفراد هذه الطبقة.

#### 2.4 طبقة كبار رجال الدولة

لا بد لأي سلطان و أي أمير من حاشية تحيط به. حاشية يستشيرها في أمره وشؤونه وشؤون البلاد. وهذه الحاشية إما صالحة وإما طالحة وهذا ما لم يتغير قبل النفط أو بعده. لكن التغير الحاصل هو في نوعية هذه الحاشية وفي نوع الوظائف التي تشغلها. فهي قبل النفط كما لاحظنا تتكون في معظمها من أهل السلطان والأمير والعم والأخ والابن. فهذا خريبط إن بحثنا فيمن حوله نجد أنهم عمه رحيم و أولاده ويمكن أن نجد بعض من ناسبهم و أشخاصاً آخرين ينذر أن لا يكونوا على علاقة وثيقة بالسلطان. كان هم السلطان الأول والأخير أن يبقى ملكه لأولاده من بعده؛ ولذا لم يكن

من السهل على السلطان أن يعين مستشارا له ما لم يعرفه ويثق به. وكانت الحياة قائمة على القتال والحروب والحملات. ولا نجد شخصا لا يرغب في أن يشاركه أولاده في إقامة ملكه فحين نتحدث عن السلطان خربيط نجد أنه كان " يريد من أبنائه أن يكبروا بسرعة و أن يساهموا في إقامة هذا الملك. لكي يكونوا مثله حريصين عليه وقادرين على استعادته إذا غدر الدهر ودارت الأيام" (223). فليس أحد في الدنيا أحرص من الأولاد على ملك أبيهم. ولكننا ذكرنا بأن للسلطان خربيط مستشارا ليس فقط غريبا بل أجنبي. هو هاملتون الذي أثبت للسلطان قبل أن يتخذه مستشارا كفاءة عالية وقدرة على مواجهة المعضلات والصعاب مع السلطان، لذا لم يكن هنالك من حائل يمنعه من أن يكون إلى جانب السلطان.

أما بعد أن ظهر النفط فقد أصبح السلطان مجبرا على إدخال الغرب إلى قصره وحياته حتى تستوي الأمور. فلم يعد يستطيع الاكتفاء بمن حوله وربما هذا من أثر المال الزائد. فهو يعطي القوة، والقوة تأتي من كثرة الحماية وهي تعني الكثير من الأفراد المحيطين بالسلطان. لذا لم يعد من المهم نوع هؤلاء الأشخاص بل الأهم الكم والكثرة. إن المال جعل هؤلاء السلاطين ينظرون لهذه الطبقة المهمة نظرة ازدراء فلم يعودوا بشرا كراما محترمين، بل تغيرت النظرة إليهم وهم وإن كانوا بشرا، فمهما كانت قيمة الواحد منهم ليسوا سوى عبيد وخدم من أجل مصلحة هؤلاء الساسة.

حين يتحدث بطل السقوط إلى أعلى عن نظرة هؤلاء السلاطين إلى السفراء؛ سفراء بلادهم الذين ينظر إليهم في الدول الأخرى نظرة احترام وتقدير لان " أي دولة تحترم نفسها لا تختار سفراءها إلا من خيرة أبنائها معدنا وقالبا وثقافة ليقوم بتمثيلها خير قيام وهي بالتالي تجلهم وتمنحهم من الاحترام ما هو حق لهم(224). وهؤلاء السلاطين لا ينظرون للسفراء على أكثر من أنهم خدم " فالسفير خادم يتكلم لغة أجنبية ويقبض راتباً لينوب عن أسياده بقول كلمة نعم أو كلمة لا...". (225).

والأمر نفسه ينطبق على الطبيب الذي لا يدعو أن يكون محتالا أو مستجديا، وهو في نظر السلاطين وأبنائهم إنسان أوصله فقره أو حبه للمال إلى "درك يجعله يقتل

من عمره السنين الطوال كي يقال له بالنهاية تعال إلى هنا وافقا هذه الدملة في مقعدي  
وخذ أجرك كذا " (226).

هل يغير المال النفس الإنسانية إلى هذا الحد. ولكن لا نستطيع أن نضع اللوم كله  
على هذا السلطان أو ذلك لهذا المستوى الذي وصلت له تلك الطبقة ذات القيمة فيما  
مضى، ولكنها رخصت مع كثرة المال؛ ولأنه كما قال فراس: " هل تعتقد أن الأطباء  
الذين يقطعون ألوف الأميال ليأتوا إلى بلادنا رغم حرها وصعوبة العيش فيها يأتون  
محببة بنا و بالإنسانية. أم حبا لماننا و ثروتنا ؟ " (227). كان هذا جواب أحد من وجّه  
لهم سؤال عن سبب هذه النظرة المأساوية لهؤلاء الأشخاص الذين فقدوا احترامهم مع  
ظهور المال.

ربما يحس السلطان بهذا الطمع لذا يرى أن الشخص يبيع نفسه من أجل المال يبيع  
ضميره لحفنة نقود. لذا فهو لا يستحق الاحترام. وربما أنها نظرة بعضهم و آخرون  
يرون أنهم بمالهم يستطيعون السيطرة على أيّ كان وإن اعتبر بالسابق قبل هذه الثروة  
النفطية، صعبا ولكن أدلّه المال وأمانه العوز؛ فيجب استغلاله دون احترام أو كرامة  
وجدت قبل الآن، وهم في حالة ضعف، مضطرون ومحتاجون إلى النفاق والكذب  
للتحقيق المصالح.

#### 3.4 طبقة الوافدين

هذه هي الطبقة الهامة التي أحس الناس بوجودها فقط منذ تدفق هذا السائل المهم.  
ألم تكن هذه الفئة موجودة في بلاد البدو وبلاد النفط قبل ظهوره، وهل كان لهذه الفئة  
تأثير في حياة المجتمع؟ وما الممارسات التي تعرّضت لها في أرض النفط؟ لم يكن في  
تلك البلاد ما يلفت النظر حتى يأتيها الوافدون من البلاد الأخرى. حتى إن أهلها لم  
يكونوا يعيشون عيشة اكتفاء حتى يأتي من يشاركهم رزقهم. هاملتون الذي ورد ذكره  
سابقا هو نموذج لهؤلاء الذين استوطنوا بهذه البلاد رغم هذه الأوضاع المتواضعة التي  
يعيشها أهلها. فليس له أي مطمع مادي. جاء مع الحملة البريطانية إلى تلك البلاد. لم

يأت في البداية إلا ليتعرف إلى هذه البلاد فهو مستشرق. ومنذ أن وصل بدأ بالبحث والتقيب والدراسة. " وذكر الذين رافقوه أن الصاحب قضى وقتاً طويلاً في نبش تلة الذيب القريبة من المخيم الذي أقامه واستخرج منه أصناماً. و أشاروا إلى ثلاثة جمال كانت تحمل هذه الأصنام " (228).

هؤلاء المستشرقون وجدوا في بلاد العرب منذ زمن بعيد وهم لا يكفون عن البحث والنبش! جاء هاملتون لا لوجود النفط وإن وجد فهو لا يهتم. هو يهتم بتاريخ وحضارة وماض، وبشر يريد الكتابة عنهم، ودراستهم دراسة دقيقة وإن تطلب ذلك أن يُسلم كعادة بعض المستشرقين، وأن يتصف بالصفات والعادات الغربية الخاصة بهؤلاء القوم. وهذا إن حصل فما هو إلا ليرتاح له هؤلاء القوم ولتسهل له المهمة. ولكن سرعان ما ينحول هذا الأجنبي إلى خادم لمصالح دولته الأم بريطانيا، فيبشر بالأفكار الغربية ويقدم النصائح للأمير "فنز"، مثلاً، فيقرأ له فقرات من كتاب "الأمير" لميكافيلي الذي يلفت الانتباه إلى أن الغاية تبرر الوسيلة؛ ومن هنا لجأ الأمير "فنز" إلى القتل والتعذيب للوصول إلى غاياته.

هؤلاء هم الوافدون قبل النفط. فهل هذا حالهم بعد النفط وبعد تدفق السائل العجيب الذي غير حال مجموعة كبيرة من البشر؟ وإذا نظرنا إلى " رجال في الشمس"، مثلاً، فإن السؤال الذي يبرز هو: ما الذي دفع بثلاث شخصيات من شخصيات الرواية بالمجيء والتفكير بالفوادة على هذه الدولة؟ أليس النفط والمال زيادة على ما يعانيه الفلسطيني من احتلال وقمع هو الذي دفعهم إلى ذلك؟ لقد كانت الكويت حلماً. يسمع كلمة الكويت يتصورها ويتخيلها إنها بلاد الخير والنفط والمال ومن يذهب إلى هناك يعود بأكياس محملة من النقود. هذا ما قيل لهم ! لقد ترك هؤلاء الثلاثة أرضهم ووطنهم و أي وطن، وطن بحاجة لهم ليدافعوا عنه " فلسطين " المسلوبة من أجل المال من أجل النفط. تقول منال حسن فتح الباب عن مصير هؤلاء الثلاثة الذين تركوا أرضهم ليذهبوا لبلاد النفط: " أن الانقطاع عن المواجهة والغياب عن الأرض جريمة في ذاتها عقابها هو الحصار - الموت الذي يعد نتيجة حتمية من جهة أخرى

للفرار من المواجهة. كما حدث لأبطال رجال في الشمس" (229). لقد هرب هؤلاء الثلاثة من مواجهة الحياة القاسية إلى حياة ظنوا أنها الأفضل فكانت النتيجة الموت تركوا المعاناة وذهبوا إلى الموت. وأين ماتوا في الكويت في مكان الحلم. وليس هذا فقط وإنما في مكان إلقاء القمامة، حتى أنهم لم يدفنوا في قبر كغيرهم. يقول الياس خوري في تعليقه على الرواية أثناء الحديث عن القضية الفلسطينية: " ظاهرة الهرب الفلسطيني إلى الكويت وبرمزها في سبيل تعميم دلالتها. الصحراء هي العطش والموت والقيظ الشديد الماء بعيد والبحر لا وجود له إلا خلف الذين يهربون من ذاكرتهم - شط العرب أو على مقاعد الدراسة - مكان الهرب هو مدخل إلى الموت الفلسطيني المجاني ومكون في الصحراء ثم انزواء أمام القمامة في الكويت" (230). هؤلاء الثلاثة مثال على وافد لم يصل. وافد مات على الطريق. مات في خزان كويتي نقله من الصحراء إلى الكويت لكنه لم يصل، هذا الوافد الهارب من بلاده حلم بما يحلم به غيره في بلاد وفيرة المال وعمل يدر الربح وعيشة بعيدة عن الحرب والقتال، ثم كما أسلفنا - كان العقاب الموت؟ وكان هذا المصير واضحا من عنوان الرواية الشمس رمز اللهب والحرارة ثم الموت. إن اختيار هؤلاء الثلاثة " لوجهة بعيدة في أقصى الصحراء " الكويت " للبحث عن الخلاص والمال واختيار الطريق الصحراوي بين البصرة والكويت، والشمس الصحراوية القاتلة للأجهزة المباشر على الفلسطينيين بمساعدة... تبدو غير متعمدة من موظفي الحدود الكويتيين الذين تربطهم بقايا بداوتهم بالصحراء" (231).

وبعيدا عن هؤلاء الثلاثة، ما الذي أتى بصبحي المحملجي في " مدن الملح" إلى موران وغيرها من المدن؟ هل أتى مستكشفا مثل هاملتون أم أنه جاء ساعيا وراء مصالحه ووراء المال والنفط والغنى؟ لو لم يظهر النفط هل كان سيظهر صبحي المحملجي وزوجته و أهل بيته رغم ورود سيرة الدكتور صبحي في باب الاغتراب والازدواجية إلا أنني أكرر ذكره ليس لإعادة النظر بوجود اغتراب أو ازدواجية عند الرجل لكن لبيان السبب الرئيسي من وجوده فهو شامي، طبيب لا يمت بصلة لهذه

البلاد. كيف ظهر فجأة ولماذا؟ ما نظرته إلى هؤلاء الناس الذين يسكنون موران وحران والمدن النفطية؟ هل يرى فيهم سمات البشرية أم أنهم كما استعرض في رأسه:

"هنا في موران يمكن أن يجد (الإنسان) المال ويمكن أن يعيش، لكن الناس هنا نوع آخر إنهم اقرب ما يكونون إلى حيوانات الصحراء: مملؤون بالحرص والقسوة والخشونة جلودهم سميكة، وأعماقهم بعيدة لا تترك (232)."

إن ما جاء به إلا المال رغم هذه النظرة المحنقة لهؤلاء البشر. حتى أنهم في نظره ليسوا بشرا. هم حيوانات وأي حيوانات بغیضة إلا أنه مستعد للتحمل من أجل ماذا؟ من أجل المال. موران بلاد النفط فقط وكل ما عدا ذلك تخلف وجهل. وقد تحدى في تغيير موران: "يذكر الحكيم أنه قال بصوت عال وهو يبتسم من بين أسنانه: أنا وموران.... وهذا الزمان" (233).

لأنهم في نظره كما وصفهم هاني الراهب في رواية "رسمت خطأ في الرمال" على لسان "ربيع أحمد": نحن شعب أنشأه الإنجليز قال: بضعة آلاف تلمموا من عشائر الصحراء. رسم الإنجليز حولهم خطأ بقلم رصاص. وقال: كونوا نفطية جيم. يتكلم المتفقون عن صدمة الحداثة. و أنا أتكلم عن صدمة القدم. عن بدو زادهم النفط بدوة" (234).

هكذا يراهم الدكتور صبحي، وليس الدكتور فقط إنما حتى الإنجليزي الذي رسم لهذا البدوي حدوده لم ير أنه يضع أكثر من شيك ليحصر تلك الحيوانات. مجيء الدكتور جلب معه أفرادا آخرين. فبعد أن استقر هذا الطبيب في أرض النفط أحضر مجموعة من الرجال ليكونوا عوناً له وكان أبرزهم سكرتير السلطان الشخصي ومجموعة أخرى؛ لكي تعم الفائدة الجميع. وهؤلاء الوافدون استفادوا وربما أكثر مما استفاد أهل الأرض أنفسهم. وهذا السبب الذي جعل كثيرين يتركون بلادهم ليسافروا إلى تلك البلاد الخيرة؛ لأنهم سمعوا عن أشخاص ذهبوا واستفادوا. فكان يجب عليهم أن يجدوا حلاً ليلحقوا بالركب.



لن أطيل مع الحكيم فلقد سبق و أن تعرضنا له لكن المهم هو تبيان سبب قدوم هذا الغريب إلى أرض موران. لقد كان ممن أتى مع الحكيم محمد عيد. لا نعرف عنه شيئاً سوى أنه غريب لازم الحكيم في حران ثم رافقه إلى موران. وبعد محمد عيد يأتي أخوه بدري ويتضح لنا أنه من طرابلس. كان محمد عيد سبباً رئيسياً في حضوره إلى هذه البلاد (235).

أما أهم الوافدين الذين قدموا إلى هذه الأراضي النفطية أخوان من ناحية الأم. حسني كركر وسعيد الأسطة. وهما من الشام. حاولا التجارة هنالك ولكنهما فشلا، حاولا تغيير المكان لكنهما لم يختارا بلاد النفط بل اختارا عمان لتكون مكان التجارة الجديدة لكنه مكان كسابقه. وربما يظهر لنا أن العيب ليس بالمكان بقدر ما هو بالأشخاص أنفسهم. فتجارتهم بعمان رغم أنها بلاد غير نفطية إلا أن تجارتهم لاقت نجاحا لكنه في النهاية انتهى بالإفلاس لإهمال شخصي أو هكذا ادعيا. لكنهما في النهاية لم يجدا مكانا يقيما فيه تجارتهما خيرا من تلك البلاد المعطاءة، بلاد النفط: حران النقطة الأولى، ثم انتقلا إلى موران. فهل كان لهما دور في المجتمع الجديد؟ هل كانا سيختاران موران لو كانت على حالها القديم؟

لقد تنبأ الحكيم في لحظة من اللحظات إلى هذا الوضع وتوقع أن يستوطن أناس كثيرون هذا المكان. أناس يحضرون من أماكن شتى يقول: " لو جاء الإنسان على موران قبل سنين لما استطاع أن يعيش، لما وجد فيها ما يعوض التعب والشقاء لا شغل و لا مال ولا بشر" (236). وهو ما كان يعلمه الجميع سواء أهل الأرض أم من أتوا إليها، ثم يضيف وهو المهم: " ومن يأتي بعد سنين لن يجد مكانا أو شيئاً سوف يكون الناس أكثر من التراب وأشره من الذباب" (237).

ما الذي سيزيد من هؤلاء البشر؟ ولماذا الشره؟ أهو الخوف من انتهاء هذا النبع وطمع كل شخص في الحصول على أكبر قدر ممكن من هذا الفيض؟

لنعد إلى اخوين وافدين ليس لهما علاقة بهذه الأرض، لكن منذ أن وصلا أقامنا الشركات والمشاريع، فهما قاما بما لم يقم به أهل المنطقة، أرادا استغلال هذا المال الوفير بما فيه مصلحتهما الخاصة، دون النظر إلى تنمية المجتمع الذي احتضنهم. مع مرور الوقت زادت أعمال الشركات ثم ازداد عدد هذه الشركات وازداد العمل وازداد البذخ والإنفاق. إن من يأتي هذه البلاد من الخارج لا يفكر تفكير أهلها فالمرء يأتي وفي ذهنه هم واحد هو المال، المال الوفير بأي الطرق والأساليب.

#### 4.4 الطبقة العاملة المضطهدة

إن بناء المجتمع يحتاج إلى عقول وأيدي عاملة ماهرة تستطيع المساهمة في نهوض البلد المضيف ورقية، ولكن ذلك لا يكفي؛ لأن المطلوب من أهل البلد نفسه المشاركة في التطوير ومسايرة التقدم العلمي: " إن منيفا يؤمن بأن تطور المجتمع يأتي من العناصر الكامنة داخل المجتمع ويرى أنه ينبغي أن يتحول المجتمع العربي من مستقبل مستهلك إلى منتج، فالمال يجب أن يوظف في الإنتاج والتصنيع الذي يمكن أن يكون بديلا لنضوب النفط، ويعمل، بناء على ذلك، على رقي المجتمع وتقدمه "(238). هل فعلا يقوم الوافد بتطوير المجتمع إذا لم يكن أبناء البلد أنفسهم هم المتحكمين بثروتهم وبخيرهم؟ هل هذا حاصل إذا كان أقصى ما يستطيع الوصول إليه ابن البلد العمل في آبار النفط لا أكثر؟. هل تستطيع الفئة الوافدة أن تفعل ذلك بحق؟ ولا سيما إذا كانت أهم الوظائف المتحكمة بالنفط هي وظائف لأجانب جاءوا ليسيظروا على هذه الموارد الجديدة؟

كانت الطبقة العاملة قبل النفط تعمل في وظائف معروفة. كانوا إما تجارا أو يعملون في سوق الحلال أو في الزراعة. وهي المجالات المعروفة للبدو، حتى يسترزقوا. وكان اعتماد البدو على القوافل اعتمادا كبيرا فهي مصدر أساسي في الرزق (239). أما عندما جاء النفط فلم يعد هذا العمل يجدي نفعا. فلم تعد التجارة مناسبة ولم يعد للزراعة مجال أصبح المجال الوحيد للعمل هو النفط آبار النفط.

وليس بالمشقة السهلة. بل السعيد من استطاع الحصول على وظيفة أيا كانت عند تلك الأبار ومهما كان نوع العمل.

ويصور منيف أحوال هؤلاء العمال الذين تجمعوا من مناطق شتى للعمل في حقول النفط بقوله: " أما الرجال الذين تجمعوا لا يعرف من أين في البيوت الخشبية والخيام فقد كانوا خليطا عجيبا من البشر لا يشبهون أيا من الذين يمكن أن يلتقي بهم الإنسان؟(240). فلماذا هذا الوصف؟ ماذا تغير في هؤلاء الرجال؟ ما هي الحياة الجديدة التي يعيشونها حتى يظهروا بهذه الصورة؟

هؤلاء العمال بالتأكيد لم يعيشوا حياة طبيعية ولا يمارسون إنسانيتهم، محرومون من أبسط الحقوق، حتى مجرد ماء نظيف لم يستطيعوا الحصول عليه: " بصمت مشوا اقتربوا من براميل الماء. كانت الأرض هناك زلقة مليئة بالمياه الراكدة وكانت رائحة المكان كريهة أما حين لامست المياه وجوههم فقد أحسوا أن لها طعما غير مستساغ ربما نتيجة الصدا أو نتيجة إضافة مواد غريبة"(241). ولعل هذه الظروف جعلت مشاركتهم في تنمية المجتمع المضيف قليلة أو معدومة في بدايات تدفق الثروة النفطية. وربما كان الأجنبي هو السبب الرئيسي في هذا القمع والاستبداد إلا إن ذلك لا يعني عدم مساعدة ابن البلد لذلك الأجنبي، فابن الراشد كان من أكثر من ساعد الأجانب على السيطرة على هؤلاء العمال " وتقدم التيه نماذج من التعسف الأجنبي والقمع الذي يمارسه ابن الراشد: فقد مات مرزان وجن أخوه هاجم، وتراكمت الاضطهادات، فقتل مفضي الجدعان وأخيرا طردت الشركة الأمريكية ثلاثة وعشرين عاملا"(242).

ويبدو أن ابن البلد يساعد الأجنبي على قمع ابن بلده من أجل المال وهو يقدم لنا نموذج الشخص الذي استفاد أكثر من هؤلاء العمال من الثروة الجديدة. استطاع ابن الراشد كسب الثقة ليرتفع عن مستوى هؤلاء العمال إلى مستوى المسؤول عنهم. مما يعني أن الناس أو هذه الطبقة قسمت إلى قسمين أو فئتين " فئة من الناس وظفت للعمل في وظائف الدولة العليا وهؤلاء استفادوا من الثروة البترولية على شكل رواتب"(243). وفئة مسحوقة وهي فئة العمال المضطهدين.

لقد كان للوافدين دور بارز في خدمة المرافق النفطية، ولكنهم لم يحصلوا على حقوقهم: " مما أدى إلى ردة فعل قوية فكسر العمال بوابة المعسكر ومزقوا الملفات" (244). كانت هذه بداية المقاومة. صحيح انها " جاءت عفوية يعوزها الوعي الطبقي العميق والتنظيم النقابي الجماعي" (245)، " إلا أنها " تعبير عن بداية الإحساس بالظلم الذي يقع على جماعة أو طبقة " (246). "لقد وُلد الإحساس بالظلم قناعات عند هؤلاء العمال أنهم يعملون للأمريكي والسلطة و أن ما يتقاضونه لا يتكافأ مع ما يبذلونه. فالأجور التي تدفع لهم لم تكن تكفي لتلبية الحاجات الضرورية وذلك لارتفاع الأسعار" (247). وهذا هو جوهر الموضوع هم يعملون لفئتين هما الأكثر استفادة من كل هذا العمل. الأمريكي الذي بدأ النباش عن النفط، ثم السلطة التي ساعدت وبشكل فعال الفئة الأولى للحصول على مرادها.

كانوا يقولون " إن فلانا لم يعد من الكويت لأنه مات قتله ضربة شمس. كان يخرس معوله في الأرض حين سقط فوقه وفوقها " (248). إن هذا العامل الذي مات من ضربة شمس في أرض الكويت يعد مثالا على ما يلاقيه الوافدون من شقاء. أهذه قيمة هؤلاء العمال أجاؤوا ليموتوا؟ لقد وصفت معاناة هؤلاء الناس بأساليب شعرية مؤثرة، يقول فيها صلاح صالح في تعليقه على صحراء " رجال في الشمس":

" وربما كان تشبيه صحراء العمل الكويتية بالمقلاة التي تتفن ترويض الغائصين فيها إلى حدود تغير طبقتهم الجوهريّة من أجمل التشايبه وأدقها في النثر العربي المعاصر حين يتحول الغائصون من كائنات حية إلى قطع خالية من الحياة جاهزة للمضغ و الالتهام. وهؤلاء لا يغوصون في المقلاة بسهولة وبمجرد أن يصبحوا راغبين في ذلك فهناك أولا هذه الرحلة الصعبة التي يتحول معها الهاربون إلى كلاب وهم يبحثون عن نقطة ماء واحدة يغسلون بها أسننتهم المشققة (249).

يمكن القول إن الثورة النفطية أفرزت شرائح اجتماعية متميزة أكثر من إفرازها طبقات اجتماعية مميزة. أفرزت في التركيبة الاجتماعية الجديدة القلة التي تهيمن: الشيوخ والسلاطين والمواطن الأصلي الذي شارك في الثروة وفق مقاييس قبلية،

والمواطن عن طريق الجنسية، والوافد العربي والوافد الأجنبي. وكانت العلاقة بين هذه الشرائح – كما رأينا علاقة تنافس لا علاقة صراع (250).

إن الروايات التي نوقشت نشي بأن الناس يفتقرون إلى الوعي الطبقي العميق، وإذا كان ثمة صراع فإنه باهت لم يصل إلى حدّ الحتمية في انتصار طبقة على أخرى، لأنه أخفق في إحداث تغييرات اجتماعية حادة في البنى الثقافية وإنما اقتصر على المسائل المادية التي أدخلت إلى المجتمعات النفطية. ولا ينكر القارئ لهذه الروايات أن هناك كثيراً من مظاهر التكنولوجيا، وتحسين الظروف المادية للإنسان العربي، فضلاً عن ازدهار العمران وشق الطرق، واستيراد وسائل الاتصال الحديثة. ومع ذلك فإن هذه الروايات ترى أن الطبقة المفتقرة إلى الوعي لم تمكن الإنسان العربي من استيعاب المفردات المادية، أو تغيير كثير من المستقرّات السلبية، ولم تستطع أن تهزّ النظام القبلي الأبوي الذي يتحكم في حياة العرب على نحو يذكر – كما تؤكد رواية الراهب ورواية حجار – بحياة القرون الوسطى. إن هؤلاء الكتاب يرون أن التعليم ونشر الوعي بين الناس هي الوسائل المثلى للحاق بعصر العلم والتكنولوجيا. إن المظاهر التكنولوجية مسّت الحياة العربية من الخارج، وجاء التقدم التكنولوجي – كما يرى عبد الإله الرحيل – أسرع من قدرة العربي على الوعي به (251).

## الفصل الخامس

### المرأة وتأثير النفط

احتلت المرأة مكانا بارزا في الروايات العربية، فظهرت بأكثر من صورة، وظهرت في مجتمعات عدة: مجتمع مدني، وريفي، وبدوي، واحتلت مكان الصدارة في أول رواية عربية بالمعنى الفني "زينب" فسميت الرواية باسم امرأة. وقد اهتم عدد من الكتاب الروائيين بالمرأة، وحاولوا إظهار النقائص وعرض النماذج. فهذا الطيب صالح يعرض في موسم الهجرة إلى الشمال مجموعة نماذج للمرأة، امرأة متعلمة متقفة تقاوم، لا تقبل بما لا تريده، وامرأة لا تعرف إلا أنها جسد يخدم رغبة الرجال وبمقدار ازدياد جمال هذا الجسد يزداد حب الرجل له وهي سعيدة بذلك، وامرأة تبذل نفسها لتربية ولدها وقرّة عينها. وأخرى أجنبية وربما وجدت التقارب مع المرأة العربية في بعض المسالك.....الخ. كما نرى أنها احتلت مساحة غير قليلة عند يوسف إدريس في مجموعة من رواياته.... كالنذاهة والعيب والحرام، إلى غير ذلك من الكتاب الذين عرضوا لقضية المرأة.

لكن رواياتنا لم يكن همها عرض هذه القضية وبالأصح لم تشكل المرأة سواء قبل النفط أو بعده هاجسا ملحا على الكتاب، بيد أن هذه الروايات اهتمت بالمرأة بالقدر الذي تحركت فيه ضمن الظروف التي خلقها هؤلاء الكتاب. بل إن بعض الروايات جعلت المرأة محرّكة للأحداث، وأحيانا كانت سببا رئيسا في نموّ الأحداث وتطورّ الحكبات، وسيكون الاعتماد على رواية "مدن الملح" كبيرا؛ لوجود إشارات كثيرة أدت إلى بروز دور المرأة أو إلى غياب هذا الدور، وإلى جانبها تقف رواية السقوط إلى أعلى وهي تعرض مجموعة نماذج لنساء تأثرن بوجود النفط، سواء أكان هذا التأثير سلبي أم إيجابا؛ فهي رواية مهمة في هذا المجال. وسأعتمد على رواية نوال السعداوي - الحبّ في زمن النفط - وهي رواية تهدف إلى عرض صورة المرأة بعد النفط، وبيان أثر البترول على وجود المرأة. ماذا أفادها؟ أو بالأصح كيف شكل حياتها؟ هل أثر في تكوينها الثقافي ووضعها الاجتماعي، أم أبقاها على ما كانت عليه؟

لقد امتازت المرأة البدوية في القدم أو ما قبل النفط بصفات وُسِّمت بها. امتازت بالبداءة المطلقة، بالانقياد وراء الرجل، باستلاب الإرادة وقلة العمل في ميادين تخرج عن نطاق العائلة والمجتمع الضيق. وهذه الصفات ظهرت لنا في رواية منيف "مدن الملح"؛ إذ قدّمت بعض الأمثلة التي تمثل امرأة منقادة مسلوبة الإرادة. جاءت إلى الدنيا لكي يراها السلطان ويتزوجها. "وقد رأينا أن المرأة تشكل هما كبيرا لدى السلطان والأمراء وإذا كان خرييط يود لأبنائه أن يتزوجوا بغية الإنجاب والإكثار من الذرية، والبحث عن الأنساب والعلاقات مع القبائل التي تقوي مركزه، فإن "خزعل"، كان دائم البحث عن المتعة" (252). هذا هو وضع بعض النماذج النسوية، همّ ليس لذاتها وليس لأهميتها، همّ لأنها مصدر النسل والإكثار، فهي همّ من حيث العدد.

لم يستطع أحد إلا ما ندر فهم المرأة وخصوصيتها. فللمرأة خصوصية وطبيعة يجب أن تفهم و أن تقدر. يماهي منيف بين الأرض/ الصحراء والمرأة، يقول:

"الصحراء، كالمرأة، بمقدار ما تبدو هادئة، بسيطة، لينة وجميلة فإنها بحاجة إلى الفهم والتعاطف، لأن لها وجوها لا حصر لها حين تغضب، أو تجن تبدو وكأن ليس لها علاقة بمكانتها من قبل. وهي في الليل غيرها في النهار، وفي الشتاء تختلف عن الصيف، وعن باقي الفصول. إنها أكثر من ذلك، إنها هي ذاتها لا تشبه نفسها أبدا. تتغير كل لحظة. تتكون في كل لحظة، عالم في مرحلة التكوين المستمر" (253).

لو فهم كل رجل هذه الطبيعة لاحترمت المرأة أكثر، ولو وصل كل رجل إلى هذه النتيجة لأتقن فن التعامل مع المرأة. ولكن هذا الرأي ما جاء إلا على لسان أجنبي، على لسان هاملتون ولم نره على لسان أي شخصية عربية. لكن وبالرغم مما سبق ظهر في تلك الفترة من الزمن امرأة سميت فيما بعد المرأة القيادية، امرأة امتازت بصفات لم يتميز بها الرجال وأثبتت من خلالها أن لها قدرة قد تفوق الرجال في القيادة والإدارة، ومن أمثلتها: وضحة الحمد زوجة متعب الهذال التي عانت الأمرين، وذاقت الويل قبل النفط وبعده. إلا أنها قبل النفط كانت أكثر إكراما و أكثر قيمة فقد كان لها رأي تقوله حتى و إن لم يطلب منها أحد ذلك إذا كان لديها كلام لا تجد مانعا من قوله. كانت

قادرة على إسماع صوتها ساردة أو موضوعا للسرد، ووقت إلى جانب زوجها ساندته، وحاولت الوقوف معه في كل موافقه. حتى رحل عنها وتركها هي وأولادها، فتحملت وصبرت كأى امرأة أخرى تتعرض لظروفها. لكن دورها القيادي لم يظهر إلا بعد ذلك حين اضطر الناس للرحيل عن أرضهم ودورهم، وسافروا مع القوافل ليجدوا مكانا يأوون إليه؛ نرى أنها "هي التي قادت القافلة، هي التي ساهمت بشد الأحمال على الركائب وهي التي فككتها" (254). امرأة تقود قافلة، قافلة تحتوي كثيرا من الرجال والنساء والأطفال الصغار والكبار. امرأة قادتهم ولم نر أي اعتراض، وهذا اعتراف بقدرة تلك المرأة على القيادة. ولم نر لها عثرات تمنعها من أن تقود القافلة بالشكل المطلوب. كان لتلك المرأة سمات تميزها عن غيرها حتى عن الرجال. لم تكن لتأخذ أي موضوع بشكله الظاهر "كان كل من حول وضحة يسمع بعض ما يقال. أما هي فكانت تسمع كل ما يقال. الذين حولها يسمعون ويمتلئون خوفا وتساؤلا، وهي تسمع وتمتلى سخرية ومرارة في وقت واحد" (255).

أما عن رأي المرأة بالمرأة في ذلك الوقت نجد فريزة تتصح ابنتها بالحفاظ على زوجها بقولها: "وقدرة المرأة غير قدرة الرجل. المرأة في يوم يمكن أن تتعلم ما لا يستطيعه الرجل في سنين، لأن المرأة تدفع ثمن كل ما تتعلمه. أما الرجل فإنه يؤجل الدفع. وقد يوافق على أن يدفع عنه الآخرون" (256). وعلى الرغم من صعوبة هذه الصفات وقسوتها إلا أنها صفات قد يصعب أن يتصف بها رجل. صفات تؤهل المرأة للقيام بأعمال ينكرها عليها الرجال.

ربما يتزوج السلطان ويطلق وحتى ينهي وجود زوجة ببساطة لخطأ لم يتيقن من حدوثه، فقط لأنه أخبر أو شك بالأمر، وهكذا تحدث الأشياء دون شعور بالذنب، صحيح أن التي يختارها السلطان لا تملك الإرادة لتقول أنها تريد أو لا، وحتى هي لم تعط لنفسها المجال لتفكر. إلا أن هذا الوضع على الأغلب يقتصر على تلك الطبقة، على السلطان واختياره لزوجاته، لكن المجتمع المحلي وإن كانت المرأة غير متعلمة



وغير عاملة، لكن كان لها رأيها الذي يؤخذ به، كان لها كلمة مسموعة، وكان الرجال يعودون إليها في شؤون كثيرة من حياتهم.

من أهم الأمثلة على المرأة القيادية وفي قصر السلطان نفسه "أمي زهوة" - أو المسماة "الشيخة" - هذه المرأة التي أثبتت وجودها وفرضت رأيها حتى على السلطان نفسه:

"أمي زهوة أو الشيخة، شخصية خطيرة في موران، وهي كذلك بنظر الناس جميعاً، ربما لأنها أقوى من في قصر الروض، يتحدث عنها الصبية ويجاريهم الصغار، نقلا عن أمهاتهم أو عن هم أكبر سناً، أو كما يصورها لهم خيالهم" (257).

وعلى الرغم من عدم معرفة صلة القرابة الحقيقية ما بين الشيخة والسلطان واختلاف الروايات في تلك القرابة أو الصلة إلا أنها أثبتت مكانة لا يستطيع أحد أن ينكرها، حتى جعلت بعض الرجال يتجاوزون بالكلام عن "الشيخة" فقال أحدهم :

"والله لو كان عندها لحية، بطول الإصبع، ما كان غيرها صار سلطان" (258). وكان الرجولة تتجسد بذلك وهو ما منعها من تولي السلطة، أما عن القدرة فعقلها يتيح لها تولي القيادة والحكم، وحينها يرد أحدهم على ذلك الكلام :

"وهي بدون ذاك راكبة ومخيلة" (259). أي أنها فرضت نفسها على الرجال قبل النساء والكبار قبل الصغار دون أن تنبس شفتا أي منهم باعتراض: "و إذا كانت عادة البدو ألا يذكروا النساء إلا ذكرا سريعا عابرا، فإن الشيخة كسرت هذه العادة واحتلت في ذاكرة الرجال و أحاديثهم حيزا كبيرا" (260). إذن عادة البدو - من جانبهم بوصفهم رجالا - ألا ينظروا إلى الحديث عن المرأة أو يذكروها إلا إذا كان الموضوع يتعلق بالجنس، عندها ربما أتى الحديث عن المرأة عرضا، فكما يقول هاملتون : "والغريب في أمر الشرقيين أنهم مفتونون بالحديث عن الجنس إلى أقصى حد. وربما أكثر من ممارسته. لا أريد أن أزعم أنهم لا يمارسون بالمقدار الكافي، أو أن الحرمان الطويل يجعلهم هكذا.... إن الرجال الذين يعرفون كيف يتحدثون في هذا الموضوع يتمتعون

بمنزلة تفوق غيرهم " (261). يقدرّون الجنس ويقدرّون من يتحدّث عنه لكنهم لا يقدرّون المرأة وهي الأهم.

أعود للحديث عن "الشيخة" التي فرضت سلطتها وهيمنتها حتى على السلطان خريبط وانتقل التأثير إلى السلطان خزعل، كانت تقف في وجه أي قرار لا ترى فيه المصلحة، ولا ضير إن قالت : "لن يكون" في وجه السلطان:

"لكن أمي زهوة، الشيخة، وقفت بشراسة الذئب الجريح ضد هذا الزواج، وقالت بوضوح شديد : لن يكون " (262). هكذا وببساطة "لن يكون" عارضت الزواج ولم يستطع حتى السلطان أن يناقش هذا الرفض، صحيح أنها عللت هذا الرفض فيما بعد، وأقنعت السلطان، إلا أن كلمتها هي الكلمة النافذة حتى ولو لم تعلّل هذا الرفض. امرأة تفرض رأيها على أهل الرأي ويكون صوتها أعلى من صوت السلطان نفسه. ماذا يراد بعد ذلك ؟ امرأة ما قبل النفط لها مكانة وقيمة رغم ما قيل عن تخلف المرأة في تلك الفترة.

كان للزوجة في تلك الفترة تأثير واضح، فهذا منير ابن السلطان خريبط ما أن تزوج حتى ظهرت عليه فروق في السلوك والتصرف والمزاج. "وبعد أن تزوج أصبح أكثر ليونة، وأكثر استعدادا للفهم ..... إنه الآن شخص آخر. أقل تجهما، محب للحديث، وإنتاجه أفضل بكثير من قبل" (263).

تستطيع الزوجة وبطريقتها الخاصة التأثير فيمن حولها سواء أكان سلبا أم إيجابا إلا أن تأثيرها يبدو أشدّ على زوجها. لكن رغم ذلك نعرف أن من تقاليد هؤلاء البدو كثرة الزواج، واحدة وثانية و أكثر خصوصا العائلة الحاكمة التي تؤمن بكثرة الزواج ليزيد النسل والذرية. يقول هاملتون: "خاصة وأن لدى العائلة في التراث من هذا المجال ما يجعل الزواج بواحدة ضربا من المستحيل" (264).

لو أن المرأة وصلت إلى فناعة بقدرتها فلا توجد مشاكل. لكن إذا وقفت المرأة في وجه المرأة عندها تتعقد الأمور وتكثر المشاكل. تقول الشيخة وهي مثال القيادة "أمنّا

حواء، طلعت ادم من الجنة. وحريم اليوم راح يجرن أمة الثقيلين إلى الجحيم وما عاد ينحزر عليهن" (265).

إذا كان هذا قول المرأة فلا يلام الرجل مهما قال، إذا كانت المرأة مقتتعة أن حواء هي سبب إخراج آدم من الجنة فلا ضير أن حقد عليها الرجال لهذه التهمة، لكننا نعود ونقول: إن هذه معتقدات ترسخت في ذهن الرجل والمرأة قبله مهما كانت المرأة، فهذا ما استقر في وعيها منذ الصغر وسار معها في حياتها.

"فضة"، مثال آخر لامرأة فرضت نفسها قبل النفط وهي "سيدة القصر". استطاعت هذه السيدة من خلال أساليب خاصة فرض نفسها. صحيح أنها ليست الأولى لكن الزوجة السابقة لها لم تتجب إلا البنات لذا لم تتل المكانة اللازمة أما "فضة" التي أنجبت ثلاثة ذكور على التوالي، كانت لها مكانة خاصة فهي أم الذكور وليس البنات.

والسلطان نفسه الذي قالت عنه الشيخة أنه لا يفرق بين أبنائه وكلهم سواء كأسنان المشط "قيل أنه لم يتردد في حمل البنيتين ومداعبتهما، كما أجزل للأمهات العطايا، خلافا لما عرف عنه في السابق" (266).

كيف اختلف عما عرف عنه في السابق؟ أي يعني ذلك أنه لم يحمل واحدة من بناته في يوم من الأيام ولم يداعبها فقط لأنها بنت ولا تلتزمه، وأنه أجزل العطاء للأمهات هذه المرة وفي السابق كان لا يأبه بهذه المرأة التي أنجبت له، فقط لأن المولود أنثى؟

نعود ونقول هذا حال المرأة قبل النفط ظهرت بأكثر من شكل، امرأة منقادة وامرأة قيادية، امرأة تدافع عن المرأة وامرأة من أكبر أعداء المرأة. أفكار وعادات وتقاليد تحكمت في حياتها. ورغم هذا الوضع إلا أننا رأينا المرأة المسيطرة المهيمنة، والزوجة المؤثرة ذات الرأي والمشورة على زوجها، والمرأة الواعية لما يدور من حولها رغم قلة تعليمها وإدراكها لواقعها.

ظهر النفط ماذا تغير على وضع المرأة؟ هل أدت هذه الثروة إلى تحسين في وضع المرأة؟ أي تغيير طراً على المرأة؟ هل حقا أخذت حقها وأصبحت لها مكانة وأخذت كل حقوقها؟ تأرجح وضع المرأة عند بعض الكتاب، فمنهم من صورها متاعاً يباع

ويُستَرى، ومنهم من جعل لها دورا بارزا في الحياة الإنسانية. وحتى في الرواية الواحدة يختلف وضع المرأة باختلاف الظروف. في "السقوط إلى أعلى" تصبح محظية السلطان، في ظل النظام الاقتصادي الجديد، أم الأمراء التي تشارك في إدارة شؤون الدولة من حجرتها، وذلك بتوجيه أبنائها وتقديم النصح لهم. يصبح هلال ابنها الذي يجيد الإنجليزية - سفيراً لبلاده في فرنسا، ويصبح شيخ القبيلة رئيساً للدولة. أما الأمراء الذين كانوا يدينون له بالولاء المطلق فيصبحون مراكز قوى تدبّر المؤامرات وتخطط للانقلاب الذي يعزل بموجبه السلطان وينفى إلى أوروبا، بعد أن يُطاح بنظام حكمه بمساعدة من إحدى بناته التي كشفت المكيدة التي دبرها للتخلص منهم فسبقوه هم. هذه الأميرة لها في ظل النظام الجديد حقوق وخدم وجوار، وتصرف لها مخصصات شهرية توهب بأمر السلطان، ويوقفها عندما يريد معاقبتها. ويكافئها السلطان الجديد بزيادة مخصصاتها لدورها في الانقلاب على أبيها. فالمرأة هنا لها دور سياسي، ولها ذمّة مالية مستقلة، وهذا تحوّل لافت.

ولعل من اللافت أيضاً في حياة الأميرات، ظهور التنافس بينهنّ في المظاهر، واللهو غير البريء والعلاقات الجنسية المحرمة، والغيرة والدسائس وشرب الخمر، تقول قطر الندى: "إني أعرف هؤلاء القوم حق المعرفة... جميعهم سواء... لا يعرفون سوى الجنس والمال، يحاول الرجل منهم الجري وراء ما يتيسر له من النساء... ولا غرابة أن تقبل نساؤهم مضاجعة من يتيسر لهنّ" (267). والمرأة في هذا المجتمع أداة للهو والجنس من قبل الأمراء، ولم تتغير النظرة إليها بعد عصر النفط إلا بمقدار تحركها هي؛ الأمة جسد، والمرأة عند الأمير جسد، وكلتاها أداة متعة لا فرق أيا كان موقعها وصيفة أو عشيقة أو زوجة أو صديقة، الفرق الوحيد أنه أصبح قادراً على السفر آلاف الكيلومترات ليصل إليها غير مكتف بما عنده.

وبالمقابل تقدّم الأميرة امرأة ذات شهوة عارمة تسعى إلى الرجال وتخون حتى السلطان مع أخيه، وتخون زوجة الأمير زوجها مع غيره، عالم مليء بالإباحية والخيانة، وبالغيرة والجنس، وتبدو فيه الحفلات النسائية المستحدثة مظهراً جديداً من مظاهر ما

بعد النفط، فرصة للتباهي، واستعراض ما غلا ثمنه من المجوهرات والأزياء مع كل ما فيها من مظاهر البذخ ونظرات الحسد والتأمر والوشاية.

أما في رواية الراهب فتصل المرأة إلى مستوى متدنٍ من الناحية الأخلاقية، ويرجعنا الكاتب إلى عصر الجواري؛ فالمرأة تعاني من الظلم والاحتقار، ويكون دورها تلبية رغبات الرجل، وتجاهر الرواية بهذه المسألة ولا تخفي الحديث عن تجارة الرقيق الأبيض، تباع وتشتري في عصر "البترو دولار"، لذا يكون مطلبها الأساسي أن تكون إنسانة، أن تعامل لا لجسدها ولكن لروحها ودورها في الحياة، أن تعرف الحب والجمال، لا أن تقتصر قيمتها على اللذة الحسية. والمفارقة في هذه الروايات تكمن في أنه في الوقت الذي ينبغي على النفط أن يجلب معه التعليم للجنسين، فإن المرأة تتحول إلى سبية وظلت تعيش في عصر الحريم. تقول الساردة: "بل نحن سبايا نعيش عصر الحريم والتكايا. انطلقنا. الحجاب الذي أغلق على وجوهنا عالما فتح لنا عوالم. صرنا كلنا ملكات سريّات يجبن أماكن سريّة في أزمنة سريّة، مع رجال سريين" (268).

أما نوال السعداوي فقد عبرت تعبيراً واضحاً عن هذه القضية من خلال روايتها "الحب في زمن النفط"، صحيح أنها تظهر في مواقف كثيرة انحيازها الكبير للمرأة وهذه رؤيتها، إلا أنها تجسد واقعا مريراً أليماً لصورة المرأة بعد النفط، واقعا يرينا أن كل ما طرأ على المرأة هو تحولها إلى جسد، جسد فقط، وهو جسد قدر رغم نظافته، قدر بالنفط والسواد، جسد يباع ويشترى بالنفط: "لم يحدث أن خرجت امرأة ولم تعد. كان يمكن للرجل أن يخرج ولا يعود سبع سنين. ومن بعدها يحق للزوجة أن تتحرر منه" (269). امرأة تحاول الخروج عن الواقع. وتحاول المرأة الخروج من هذا الظلام إلى الشمس ولكن ذلك أمر نادر لا يتوقع حدوثه. فالمرأة وإن غاب زوجها لا تتحرر إلا بعد سبع سنين. يذهب العمر وهي تنتظر التحرر. "لم يكن في حركتها شيء يثير الريبة، إلا ذلك الحماس غير المؤلف بين النساء. وهي تتطلع نحو الشمس، بعينيها العاريتين من أي غطاء. وشيء يطل من حقيبتها يشبه رأس أزميل" (270). تتطلع نحو

الحرية، نحو الشمس والضياء. امرأة عاملة انتقدت على عملها، وكأن العمل مقصور على الرجال دون النساء، فهي إن عملت فليست امرأة طبيعية، لماذا ؟

" غالباً ما يشير انشغال المرأة بأمر خارج البيت إلى مرض نفسي" (271).

ربما يقول أحدهم إن هذا الكلام مبالغ فيه خصوصاً في زمن كهذا، زمن النفط والتحضر، إلا أن نوال السعداوي لا ترى ذلك. إن النفط وهو رمز التقدم والحضارة عامة في بلادنا يرتبط بأقصى درجات التخلف والتأخر عن ركب الحضارة وخصوصاً في مجال المرأة: " تراخت قبضتها حول حزام الحقيقة. وربما لا يكون الثبات هو المطلوب. تركب نفسها للريح، حركة لم يألّفها جسمها أول الأمر بدأ ثقيلًا ثم أصبح أقل وزناً. أغمضت عينيها فيما يشبه الاستسلام، إحساس جديد بدأ يتسرب إليها على استحياء" (272).

وهذا هرب من الواقع، على شكل محاولة للتحرر، ولأنها لم تتعود على ذلك فلم يألّف جسمها هذه الحركة، لم يألّف إلا القيد، لذا بدأ ثقيلًا على الأصل الذي تعودته لكنه مع الانطلاق بدأ يخف شيئاً فشيئاً. ولماذا يتسرب هذا الإحساس على استحياء ؟ لماذا الاستحياء ؟ بالتأكيد لأنه غريب من نوعه، إحساس لم تألّفه في يوم من الأيام، وهي غير واثقة من قدرتها على تقبل هذا الإحساس لذا جاء على استحياء، فهو جديد وفريد زمن النفط زمن التقدم، ورغم ذلك لا يزال صوت المرأة لا يتجاوز الهمس خوفاً من أن يرتفع على صوت الرجل، وهذا أمر مقدّس يفترض وجود الرجل وغياب المرأة "ظلت أصوات النساء منخفضة لا تزيد عن الهمس ارتفعت أصوات الرجال" (273).

يحق للرجل أن يرفع صوته كما يجب لكن صوت المرأة عورة حتى لو كان في حقها، حتى لو كانت تطالب بذاتها وكيانها، كل ذلك لأنها " أنثى "وكان هذه الصفة عيب أو جريمة يعاقب عليها القانون بالحرمان.

حتى الدين يفهم بطريقة مشوّهة عند الحديث عن المرأة وحقوقها، فكل شيء يقسم "للذكر مثل حظ الأنثيين" لماذا هذه القسمة؟ شرعها الله في الميراث لأسباب

واضح، لكن لم لم يقسم غير ذلك بتلك الطريقة؟ ما السبب والتعليل غير أنها انثى  
يسهل استلاب شخصيتها ونزع صفة الإنسانية عنها. ونقرأ في الرواية:

- سكبت في حلقه أربع قطرات. أغمض عينه طويلاً ثم فتحها، لعق شففته السفلى  
بطرف لسانه (274).

- أهو ماء؟

- لا نوع مقطر من النفط يروي أكثر من الماء، ويظهر الأمعاء افتحى

فمك (275).

هذه هي الحضارة، هذا هو التقدم، هذا هو المال، إنه أفضل من الماء، فهذا زمن  
النفط وليس زمن الماء. انتهى نصيب الرجل لكن ما نصيب المرأة من تلك الحضارة،  
من هذا النفط؟

"سكب في فمها القطرة الأولى ثم الثانية، أرادت القطرة الثالثة والرابعة، تشبثت  
بالزجاجة تقبض عليها بأصابعها الخمس لكنه شدها منها وخبأها.  
"- لك نقطتان فقط حسب القانون" (276).

للذكر مثل حظ الأنثيين، حتى في الحياة، في الهواء وفي العيش وفي العلاج. ورغم  
الزمن الذي تعيشه، زمن التقدم والوعي، زمن أخذت فيه المرأة حقها، فلا يزال في  
مجتمعنا هنالك من يحرم الفتاة من نصيبها في الميراث، بحجة أنها عند الزواج أخذت  
معها ما يكفي لذا عليها التنازل عن نصيبها لإخوتها الذكور، وهذه ظاهرة موجودة في  
مجتمعنا الحالي. مجتمع ذكوري مهما برزت فيه المرأة فإن الرجل غير مقتنع بأنها  
إنسانة أصلاً، لها ما للرجل وعليها ما عليه إلا ما فرض الشرع:

- لا أفهم لماذا لا تطلق سراحي؟

- سراحك؟

- نعم، فأنا مثلك إنسانة ولي حقوق.

- ماذا؟

- حقوق المرأة ألا تعرفها!؟

- هذا شيء لم نسمع به وعندنا قانون حقوق الإنسان فقط (277)

الرجل من يعيق المرأة عن التقدم، والرجل هو من يريد لها في هذا التخلف، لأنه يخاف من تقدمها فهو لا يريد لها حتى أن تفكر، لأنها إن فكرت عرفت الحقيقة و إذا عرفت أنها تحررت، وإذا تحررت انجزت وعندها ستنافس في موقعه وهذا ما لا يريد الرجل. "يتحدد وضع المرأة العربية منذ لحظة ولادتها في الواقع العربي وفي إطاره المرجعي الفكري، بأن المرأة كانت ضعيفة جسما وعقلا" (278). وهذا الضعف كما يقول د. بدران "يقرر على أنه ضعف جوهري وليس ضعفا عرضيا، وعليه تؤسس محددات دورها الاجتماعي وموقعها البشري "الأمومة" بمفهومها التوالدي الرعوي" (279).

أنا أتكلم عن مجتمع نفطي وليس عن مجتمع ما قبل النفط، فهذا الكلام موجود في مجتمعات نفطية بدوية في أصلها لكنها لم تغير من تفكيرها وعاداتها ونظراتها، حتى بعد النفط كل ما تغير المال، زاد المال وبقي العقل كما هو. يقول سمير عبده في كتابه المرأة العربية بين التخلف والتحرر، في سياق مختلف، عن رغبة المرأة بأن تصبح رجلا:

"وليس هذا الأمر صفة مرضية في المرأة، بل إنه نابع عن وعيها بطبيعة وعلاقات القوى في المجتمع الذي نعيش فيه، إنها تعي أن الذكورة تعني إمكانية القوة والسيطرة والتحقق، وأن الأنوثة مرتبطة بالدونية والهزيمة، أن حلم المرأة بأن تكون رجلا يرجع لأسباب اجتماعية بحتة" (280).

وما زلت أتحدث عن مجتمع نفطي، تحلم فيه المرأة بأن تصبح رجلا.

لنعد إلى الروايات ولنر كيف ظهرت هذه المرأة في مجتمع النفط عند عبد الرحمن منيف في خماسيته، هل تغير حالها عن حال سابقتها؟ هل اختلفت عن المرأة عند نوال السعداوي؟ قبل النفط ظهرت لنا امرأة قيادية لها صوت مسموع حتى على الرجال، لكننا لم نستطع أن نرى تلك المرأة بعد النفط إلا من أمثلة قليلة لم ترق إلى مستوى الشيخة "زهوة": "لما أصبح الأمير خزعل سلطانا كانت المرأة السادسة عشرة



قد مرت من تحته، وكان لا يزال يبحث عن السر الإلهي في العلاقة بين الرجل والمرأة" (281). ست عشرة امرأة كي يكتشف السر، وهذا فقط عندما تولى السلطة فهو لا يبحث عن المرأة بل يبحث عن سبب النشوة التي يحس بها معها، يبحث عن اللذة وعن الجنس هذه هي المرأة فلا يوجد امرأة مختلفة كلها تحمل نفس السر، إذ إن كل النساء متشابهات ولا ضير من كثرتهم.

لكن تلك المرأة ليس لديها أي مانع فهي كما ذكرنا قد تشربت فكر الذكورية و أمنت به، فلا مانع عندها أن تكون الأولى أو السادسة عشرة، ولا مانع من أن تتزوج المرأة زوجها بحجة أنه لو تزوج سيعود لها في النهاية، أو أنها استفادت من الناحية المادية من وراء هذا الزواج "و حين طلب من زوجته الأولى "عدلة" أن تجهزها، لأنه سيبنى بها الليلة و أ بعد تقدير الليلة التي بعدها وكانت قد انتقلت إلى عدله مسألة تزويجه مرة بعد أخرى" (282). لكنها مع ذلك كانت تقول لنفسها "الرجال يعرفون أشياء كثيرة في هذه الحياة ولكنهم لا يعرفون المرأة، أنهم يتصورونها كما يتمنون أو كما يحلمون والغريب أنهم غير قادرين على أن يروها على حقيقتها رغم أنها تكون عارية بين أيديهم" (283).

هذا هو الواقع الفني: الرجل لا يرى المرأة إلا كما يتصورها ولا يتجاوز خياله رؤيتها إلا وهي عارية وإن كانت غير ذلك فهو لا يراها، فهذه المرأة "عدلة" رغم تساهلها في زواج زوجها وتيسره له، إلا أنا نجد لها دورا فعليا في حياة السلطان فهي الأولى المحببة والمقربة من السلطان لذا نجد أن لها دورا بارزا في أحداث "المنبت" وربما هي السبب الرئيسي وراء طلاق سلمى من السلطان وطرده السلطان لوالد سلمى "الحكيم". وهذا لا لشيء إلا لأنها لم تختار هذه الزوجة للسلطان، فلم يكن هذا اختيارها أو بموافقتها، بل هو اختيار السلطان وحده بتسهيل من الحكيم وزوجته العائد للدافع المادي إلا أن هذا لم يرض عدله ولم تتعود عليه، ثم ربما وجد سبب أقوى ألا وهو غير المرأة من المرأة. نعم ربما كانت غير عدلة من سلمى أهم سبب لكرها لها، فسلمى ليست كأى زوجة من زوجات السلطان، فهي تختلف عن الجميع، جميع الزوجات مهما

اختلفت مقومات الجمال بينهن فإنهن يعدن إلى أصول واحدة وإلى مجتمع واحد، إلا أن هذه الدخيلة الجديدة من أصول مختلفة فهي شامية وجميلة، وجمالها يختلف عن النساء الأخريات للسلطان بما فيهن عدلة، فهي فوق جمالها الخاص صغيرة، شقراء تمتاز بدلع سافر، لذا خافت منها عدلة، ولكن لا يقف ضد المرأة مثل المرأة فإن أرادت تحطيمها فعلت، خصوصا مع فتاة مثل سلمى ضعيفة الشخصية خجولة مترددة. هذه عدلة نموذج لامرأة نفطية تفكر بالمال والبذخ حتى لو كان على حساب أمورها الخاصة، ومن جهة أخرى سلمى الضعيفة المنكرة التي لم يسألها أحد عن رأيها في زواجها من السلطان، بل تقرر الزواج وتزوجت على غفلة منها، فقط لأن أباه و أمها رأيا أن في هذا الزواج مصلحة لها.

وعلى الرغم من أن سلمى مثال لفتاة تستطيع القول بأنها متعلمة في وقت ينذر وجود امرأة متعلمة، و رغم أنها نموذج لامرأة نفطية ولدت في زمن النفط، إلا أنها لم توجد إلا من أجل جسدها، أجل كانت لعبة رخيصة كأنها قطعة أرض تباع وتشتري حسب المصلحة. وعندما طُلق من السلطان وتغيرت حالها وتبدلت عيشتها كان كل ما قاله الأب :

" هذا الزواج كان من أوله غلط " (284).

هكذا وبكل بساطة باع بضاعته وحين ردت إليه لم ير إلا أن هذا البيع بيع خطأ، وماذا كانت النتيجة؟ ماتت سلمى. ماتت بعد كل تلك المعاناة. كانت هي الوحيدة الخاسرة في تلك اللعبة. خسرت المال والحرية والطفولة ثم أخيرا خسرت حياتها.

هذا مثال لامرأة دفعت ثمن هذه الثورة، لم تستطع أن تستفيد لأن المجتمع الجديد حاصرها وقتلها. هذه سلمى، فماذا عن نموذج آخر مختلف هو أم سلمى "وداد زوجة صبحي المحملجي"؟

جاءت هذه المرأة إلى موران برغبة من زوجها لتبقى إلى جانبه. لم تؤخذ بالوضع في البداية. فالشكل العام لهذه المدينة لم يعجبها؛ لأنه بالتأكيد يختلف عما كانت تعيشه من قبل في الشام "بدت موران في عيني وداد، وهي تنظر إليها من الشباك في

الصباح الباكر مدينة منفرة، فالبيوت متلاصقة واطئة، متتابعة و كأنها سلسلة لا نهاية لها من كتل طينية وأشجار النخيل القليلة المتباعدة ميتة الخضرة " (285).

ومن المؤكد أن هذا المكان مختلف عما هو عليه الشام، وأنها وضعت في ذهنها قبل حضورها أن العيشة مختلفة في هذه البلاد. لكن المهم من هي تلك المرأة وما حالها؟ كيف ينظر لها زوجها وكيف تنظر هي لنفسها؟

عاشت و داد حياة كفاف، فلم يكن أهلها من الأغنياء أو أصحاب رؤوس الأموال، لا بل وفوق ذلك عاشت في بيت ليس فيه حديث غير قصص الموت والموتى؛ لذا كان أمل و داد في التخلص من هذه الحياة كبيرا وطموحها إلى حياة أخرى طموحا عاليا وليس هناك أفضل من رجل طيب لديه تطلعات مستقبلية لينقذها من هذه الحياة المتواضعة (286).

تقول و داد: "رائحة الموتى عالقة بثياب أبي، وجو الآخرة لا يفارق أمي" (287). لذا كانت دائما تحاول الهرب من شبح الموت المتأصل في تلك العائلة. ذهبت إلى بيت الزوج، وما الذي وجدته؟ وجدت زوجا لا يسأل أو يستشير، بل يقرر ثم ينفذ قراراته وحده: "و داد التي تعودت على الموافقة وتعودت أكثر من ذلك على هذا الرجل الذي يفكر وحده ويتخذ القرارات دون أن يقول لماذا؟" (288). هذه نموذج الزوجة التي غاب عنها زوجها مدة طويلة لا يسأل و لا يأبه أيضا بها "قضى الحكيم سنوات في حران، بعيدا عن زوجته و أولاده، لا يأتهم إلا مرة في السنة، وبعض الأحيان مرتين" (289).

إن كثرة الضغط لا تولد إلا الانفجار، ازداد الضغط على و داد و ازداد إنكار زوجها لها، فما كان منها إلا أن بحثت عن بدائل لهذا الإنكار لشخصها ولجسدها الذي يثور عليها بين الحين والأخر يطالب ويصرخ عليها، ولأن شخصية هذه المرأة - كما تكشف "الأخدود" - ربما نستطيع القول إنها شخصية ضعيفة لا تمتلك الإرادة، لذا انسأقت وراء جسدها وتركت له العنان ليطالب. ولم تتركه حتى أرضته و أشبعته، وإن كان هذا الإشباع حرام، من شخص ائتمنه زوجها عليها، "خلال هذه السنوات، لم يتغير

الحكيم وحده تغيرت وداد ايضا، فالنظرة المسالمة لكل ما حولها وتلك الطاعة.....  
تغيرت كلها" (290).

ضاعت وداد؛ يزداد التقدم وتزداد ضياعا، قالت وهي مع راتب في فراش واحد: "الآن ولدت من جديد!" اعتبرت هذا الضياع ولادة "واستمرت هذه الولادة وكبرت ما دامت الشركة الشرقية للاستيراد والتصدير والنقل تستمر وتكبر" (291).

هكذا بدت المرأة: تقدم وحضارة واستيراد وتصدير يقابله سقوط للمرأة وضياع

بسبب التهميش:

"ولما سافر الحكيم بدأت تطير وتحلق، وعندما تدفقت الأموال أصبحت امرأة من نوع مختلف" (292). المال يغير، أرادها زوجها أن تبقى على حالها رغم أنه لم يبق على حاله. أرادها كما هي ولم يبق هو كما هو، يحق له ذلك و لا يحق لها ذلك.

لم يدافع النص عن هذه المرأة؛ فليست هذه طريقة تفرض فيها نفسها. لم يكن جسد المرأة يوما طريقا لفرض الذات إلا في عقول المرضى الذين لا يرون أصلا في المرأة إلا الجسد. تلك المرأة اتخذت الطريق الخاطيء، طريقا لم ترفع من قيمتها لا بل جعلتها أكثر انحطاطا، حتى منيف نفسه رأى أن ودادا ضحية من ضحايا البترول، ومن ضحايا التقدم والتوسع، والنص هنا يدين الرجل والمرأة معا.

حتى تتقدم المرأة يجب أن يبدأ التغير من المرأة نفسها: " في الأسواق والمجتمعات وال فنادق رأيت نساء كثيرات، بنظرة واحدة أدركنا كلنا أننا امرأة واحدة، بجملة واحدة عرفنا أننا كلنا مشكلة واحدة، وأنا نبحت عن رجل واحد عديد التحسرات" (293).

هكذا يجب أن تكون المرأة أن تتحد مع المرأة وترى المشكلة مع مثيلاتها، ولا تقف ضد المرأة، فالمرأة ليست جسدا يباع ويشترى، وكما اقتبسنا سابقا: "سأخضع أمامك نقابي الحقيقي ولوجهي و أصفادي وملابسي أجد نفسي امرأة لا فرجا - أجد رجلا يعطيني

حبا، لا مضاجعة يمتلك بئرا من الجمال، لا بئرا من الانتعاضات والنفط" (294).

هذه هي علاقة الرجل بالمرأة فلا يوجد امرأة تحب أن تكون مجرد جسد يخلو من المشاعر والأحاسيس، "قلت بنات القرن العشرين، عصر الحرية والحب والجمال، فأجبن بصوت واحد، بل نحن سبايا نعيش في عصر الحريم والتكايا" (295). هذا هو ما يمسك المرأة ويجرها إلى الخلف. وليس كما يقول بعض الكتاب هذا الحجاب الذي يحجب المرأة عن المجتمع الحالي وكأن الحجاب هو العائق الوحيد الذي يمنع المرأة من أن تأخذ حقها أو أن المرأة المتخفية عنه تتمتع بكامل حقوقها فقط لأنها لم تسير وراء هذا التخلف الذي يدعى حجاب، وقد فوجئت بمجموعة كتب ليست بالقليلة تتحدث عن المرأة، حاولت أن أتخذها مراجع، لكن كثيرا منها يجمع على أن الحجاب من أهم عوامل تخلف المرأة. ولم يذكر كتاب واحد أن المرأة السافرة تتمتع بجميع حقوقها.

لا أعرف المشكلة بين أن ترتدي المرأة الحجاب وفي نفس الوقت تتمتع بحقوقها وحريتها. إنا نتحدث عن أن أهم مظاهر تراجع المرأة هو رؤيتها كجسد وليس كإنسان وهنا أليس الحجاب مساعدا للمرأة حتى تغير هذه النظرة وينظر لها كإنسان؟ إن لم تظهر مفاتها وتعرض بضاعتها، أليس المنطق أن تصبح إنسانية أكثر منها وهي تتاجر بمفاتها؟

حتى نوال السعداوي ترى أن الحجاب مظهر من مظاهر التخلف التي يجب التخلي عنها :

" أنت لست بقرة عمياء تدور في ساقية ؟ ينبغي أن يكون من حقك أن تري ما حولك. أليس كذلك ؟ أم أنك اقررت جريمة في الخفاء فلم يعد في مقدورك أن تظهرني أمام أهل القرية بوجهك المكشوف ؟" (296).

إذا تحجبت المرأة فهي بقرة ولن تستطيع رؤية شيئا مما حولها، وكأن الحجاب رباط أسود لا تستطيع العين النظر من خلاله:

- أهنالك سبب يدعو لك لكل هذا التخفي.
- ليس هناك أي سبب يدعوني لكشف وجهي.

- تستطيعين على الأقل رؤية العالم (297).

هذه وجهة نظر نوال السعداوي ولست هنا كي أناقش الآراء حول ارتداء الحجاب أو حتى لمناقشة تحجب المرأة. لذا نعود إلى الروايات لنرى المرأة بعد النفط كيف أصبحت وماذا استفادت ؟

أما عند وليد الحجار فإن روايته تعتمد على العنصر النسائي بقوة. كشف من خلالها وضع المرأة بعد النفط وقدم نماذج لنساء ما بعد النفط. أول امرأة سأحدث عنها، لها دور في تسير الأحداث ولو بشكل قليل أم الأمير هلال التي توضح وضع المرأة قبل النفط حين تقول لولدها عن أسلوب تعامل والده السلطان مع نسائه: "رحم الله أباك الذي كان إن رفعا الصوت أذاقنا لسع السوط أو زج بنا في المخدع خمسة عشر يوما دون أن يسمح لنا بالكلام مع أحد" (298). ولعل الكاتب يرغب في أن ينساءل كما يتساءل معه القارئ أهذه معاملة لإنسانة أم أنها معاملة لحيوان؟ لا يحبس ولا يضرب بالسوط إلا الحيوان. ولماذا كل هذا؟ لأن صوتها ارتفع؛ لذا فقد أجمت وتستحق كل هذه العقوبة، ولكن وكما ذكرنا ربما أن هذه المعاملة وجدت في تلك الطبقات المتحكمة، ولكنها تندر كلما نزلنا بالطبقة وربما يعود ذلك إلى قلة ثقة تلك الطبقة بالمرأة لكثرة تنقلها ومحاولة الخروج عن تقاليد معينة. لذا نرى أن الثقة تهتز وتقل في لحظة لوعة مباغته التفت إليّ وهتفت: "كيف يمكن لرجل أن يثق بامرأة ؟ قلت: عندما يمكن أن يراها إنسانة لا متاعا" (299). لكن هذه المرأة رغم ذلك لها مكانتها ومهابتها بين أهل القصر فهي الزوجة المفضلة عند السلطان قبل وفاته لذا كان لها تأثيرها الخاص ويظهر ذلك بأنها تفقد بعض تلك المميزات بمجرد وفاة السلطان وكان مصيرها ارتبط بمصيره. وجد في السقوط الكثير من الشخصيات النسائية التي أثرت في أحداث الرواية وظهرت بعد النفط أهمها الأختان ميساء وقطر الندى التي ورد ذكرها في فصل سابق ثم زوجة فراس التي تزوجها رغم قلة جمالها وهو ابن الأجنب الذي أحب عندهم الكثيرات، وعاد بعدها إلى بلده وتزوج امرأة كما يصفها صاحبه: "كان واضحا أنها

تكبره، قصيرة القامة بدينة، ولئن كانت حرارة الكبت تضيء على عينيها بريق الجنس فقد كانت ذات بشرة داكنة غير متجانسة، معقوفة الأنف طويلته " (300).

رغم كل هذه الصفات تزوجها فراس ولا يتجلى السبب الذي جعله يختار هذه المرأة بالذات، والذي أغراه بها، هل فعلا يبدو الشكل غير مهم عنده؟ وأنه ينظر إلى ذات المرأة قبل شكلها؟ هل يعقل أنه يفكر بتلك الطريقة التي يندر حدوثها عند أي رجل؟ هذه الزوجة أيضا كما ورد ذكرها قبل الآن وظهر دورها البارز في إظهار صورة لامرأة مستعدة لبذل أي شيء مقابل أن تستفيد من المال. حتى تبيع زوجها وتذهب مع غيره إذا كان في ذلك مصلحتها، وهنا نرى مثالا جديدا لامرأة غيرتها الحياة النفطية فأصبحت مثل الرجل في تفكيرها، تريد المال والمال فقط، فكما يريد الرجل المال ولا يأبه للمرأة وحالتها، أصبحت المرأة تريد المال ولا تفكر بالرجل، إلا أن الفرق أن المرأة يبقى لديها بعض القيود التي تمنعها من تنفيذ كل ما تريد بينما هذه القيود غير موجودة عند الرجل.

نعود إلى ميساء وقطر الندى، هاتان الفتاتان لا تختلفان كثيرا عن وداد إلا أن ودادا كان محركها الرئيس جسدها، وهو الذي قادها إلى الخطأ، أما هاتان الفتاتان فإن المال هو المحرك الرئيس لهما، قادهما إلى الخطأ والفسق وإلى الزنا. ولم نر أي محاسبة أو تأنيب ضمير، كما ظهر عند وداد في بعض الفترات. ولن أطيل في ذكر صورة الأختين فهي واضحة. وداد مثال لامرأة انساقت وراء هذا العصر وأصبحت تفكر تفكير الرجال. و إن بحثنا في أصل الموضوع نجد أنها كانت مقيدة ومحاصرة من بيت الأب إلى بيت الزوج و أنها تحولت في لحظة من اللحظات إلى لعبة وتسلية ومتاع لا أكثر.

هكذا رأينا وضع المرأة قبل النفط وبعد النفط من خلال مجموعة من الروايات وهي في أغلبها تجمع على تردي وضع المرأة بعد النفط. تحدثت الروايات عن وضع المرأة وظلمها وضعفها قبل النفط إلا أن الحديث عن جسدها لم يظهر بتلك الصورة التي ظهرت عند الحديث عن المرأة بعد النفط. مجموعة نماذج رأيتها - نماذج منقادة محاصرة مستسلمة لا تحاول حتى محاولة التحرر، ونماذج أخرى همها التحرر وفك

القيود لكنها تعاقب على هذه المحاولات مثلما عوقبت المستسلمة المنقادة. وهناك نماذج أخرى فكت القيد وانطلقت وحاولت التحرر من كلمة رجل، ولكنها سلكت طريقاً خاطئاً لهذا التحرر؛ فكان مصيرها الضياع والتهيه.

## خاتمة

عند الحديث عن شكل المجتمع الروائي قبل النفط، يمكن توصيف الموضوع ضمن ثلاثة محاور: الاقتصادي والاجتماعي والسياسي: لقد تركز الاقتصاد قبل النفط على ثلاثة عناصر وهي: الرعي والزراعة والتجارة. كان المجتمع قبل النفط مجتمعاً بدوياً قليلاً وكانت هذه القبائل تعيش حياة بسيطة؛ تسكن بيوت الشعر، وثروتها الوحيدة الإبل والأغنام وطعامها التمر واللبن على مدار السنة.

تعرض بعض الروايات وبأساليب مقتضبة موجزة حياة المجتمع العربي قبل النفط وتعول على الحذف في كثير من الأحيان بيد أن القارئ يستطيع من خلال لجوء بعض الروايات إلى تقديم شخصيات عاشت الفترتين أن يسجل بعض ملامح المجتمع العربي قبل اكتشاف النفط.

نستطيع القول إن هؤلاء البدو لم يكونوا يهتموا بما يتجاوز حدود قوت يومهم، وإن تجاوزوا ذلك فالأمر ينحصر بتأمين الطعام والشراب والملبس وحتى تأمين هذه الأمور لم يكن عن طريق تعامل مالي ونقدي بل على الأغلب تؤمن بطريقة المقايضة ولكن ذلك لا يلغي دور العملة المعدنية في التجارة. أما مهنة الرعي فتعد مهنة من المهن التي كان لها أهمية بارزة بالنسبة لاقتصاد المجتمع الروائي قبل اكتشاف النفط، إن أكثرية سكان ذلك المجتمع يقتنون الإبل وقد تمثل الرعي في تربية الجمال والماشية وغيرها. أما التجارة فانقسمت إلى قسمين:

تجارة داخلية بين أفراد المجتمع البدوي الواحد. فكانت تقام لها بضع دكاكين وقد بنيت بشكل بدائي وبسرعة متناهية وهي عبارة عن غرف صغيرة دون نوافذ، وتكون هذه الدكاكين عامرة مليئة بالبشر والأشياء ويختلط فيها الباعة والمشترون. أما



التجارة الأخرى فهي التجارة الخارجية - تجارة القوافل - هذه القوافل المنقلة من منطقة إلى أخرى ومن بلد إلى آخر. كانت التجارة أحد أهم المرتكزات التي تقوم عليها معيشة البدو قبل أن يظهر ذلك النفط الأسود ولو أنه استمر بعد ذلك بطرق مختلفة وعلى صعيد أوسع، لكنه في ذلك الوقت كان من أهم أبواب الرزق حيث تنتقل القافلة من مكان إلى مكان تشتري وتبيع في كل منطقة تنزل بها، وتحل عند سكانها وتزداد عملية التبادل.

وإذا ما انتقلنا إلى البعد السياسي فسنرى أن البداوة وأحيانا البدائية موجّهة للبنية السياسية، إذ يستند الحكم إلى التركيبة القبلية التي تعني في الغالب تسلط الفرد وتمركز النفوذ في يده أو من يخولهم بذلك من أولاده وأقاربه. وبإيجاز شديد تشير معظم الروايات إلى مركزية الحكم بيد شيخ القبيلة الذي أصبح يسمى أميراً ثم سلطاناً، ولأن القبائل متعددة ومتنافسة فقد كثر الأمراء ونشبت بينهم الحروب الدامية مع ما رافق ذلك من قيم التآمر والغدر والاستعانة بالأقوياء ولا سيما الأجانب. لقد انعكست البنية السياسية والعيش في أحضان الماضي المتخلف القائم على الاضطهاد والقمع - على تشكيل القيم وأنماط السلوك وأظهرت الإنسان العربي كأنه يعيش في قرون التخلف والظلام. ولعل من أبرز القيم الشائعة في فترة ما قبل النفط الإيمان بالغيبات إلى حد عطلّ العقل وحيدته وأصبح الدين سلبياً بدلاً من أن يكون مصدر إلهام وإبداع، ففي " رسمت خطأ على الرمال " يقتصر فهم القرآن الكريم على الإيمان بالجن والتداوي بحروف القرآن واستبعاد التداوي بالعلاجات المعروفة. ويضاف إلى ذلك تفشي الأمية وانتشار الجهل والفقر والإيمان بالخرافات، بيد أن قيماً إيجابية شاعت في هذه المجتمعات مثل الكرم والتكافل الاجتماعي والتواصل الإنساني وحب الأرض والانتماء... إلى غير ذلك، كل ذلك كان قبيل اكتشاف النفط، فما الذي حدث عند مجيء الآخرين ؟

استطاع تيمور ومنيف وغيرهما أن يقدم أمثلة كثيرة على ردود الأفعال وكيف أنها انقسمت إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول القسم الراض، وقسم متقبل تماماً. وقسم ثالث

لا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء، بل وقف متفرجا ينتظر أن يرى إلى ماذا ستؤول إليه الأمور. ومع ذلك فإن هذا القسم لم يظل على حياديته فأصبح إما مع مؤيد أو مع معارض. تمّ توضيح ردة فعل كل شخصيه من خلال حديث موجز عن كل شخصيه مع تحليل بسيط لسلوكها وطريقة تفكيرها. وهو ما توضحه الروايات لتستطيع الحكم على كل عمل ينتج عن هذه الشخصية. لقد جاء التركيز في هذا الموضوع على "مدن الملح" ولا سيما " النيه"؛ ففيه ظهر النفط وفيه كان ثمة وصف للمنطقة قبل النفط وربما أن الاسم وحده دليل أكيد على عظم القضية التي يحملها هذا الجزء. فالتيه ليس ضياعاً فقط وليس فقداناً للطريق حسب، إنما قد يعني فقدان التفكير السليم. فالتائه قد يسير في طريق معروف ولكنه لا يعي ذلك وربما العكس فلا يستطيع أن يقرر أبقى حيث هو أم يبقى مستمرا في سيره.

ويبدو الاغتراب بوضوح في بحث الإنسان عن إنسانيته، وسعيه للتصالح معها والانسجام في التعايش معها وتشير الروايات إلى ضياع الإنسان واستلاب إنسانيته؛ نتيجة تدفق النفط. أن أفعال الفرد لم تعد تقود إلى نتائج مفيدة تتناسب مع الجهد المبذول. وتعرض النصوص صورة قاتمة لعلاقة الإنسان بالإنسان، وعلاقته بالسلطة، وتلجأ إلى إدانة المجتمع بقواه المختلفة بوصفه سببا لما وصل إليه الفرد من حالات الاستلاب؛ إذ يلجأ الفرد إلى الاستسلام واليأس أكثر من ميله إلى الرفض والتمرد.

إنّ عدم مواكبة الحياة الاجتماعية للجديد أفضى إلى نتائج خطيرة تركت بصماتها على مشاعر الناس وأحاسيسهم، وقادت بالتالي إلى بروز بعض مظاهر الاغتراب والازدواجية.... إنّ هذه التغيرات جاءت بسرعة كبيرة لم تستطع النفس البشرية أن تستوعبها بسهولة وتتأقلم معها، ولم يأت هذا التغير بقدر متساو عند جميع الناس، ولم يكن أسلوب التأثير واحداً عند الجميع؛ فمن هؤلاء الناس من تأقلم وتعايش وانطبع بالجديد كأنه أصل منه، ومنهم من لم يستطع التعايش مع هذا الجديد؛ فعاش بالمقابل حياة اغتراب وعزلة عن الناس، وقد ظهر ذلك من خلال سلوك هؤلاء الأفراد وطريقة تعاملهم مع الآخر وما جلبه معه .

وعندما بدأت ملامح ارض الصحراء تاخذ بالتغير تغير البشر، بدأ الإنسان بالتغير، فكلما تغير معلم من معالم الأرض تغير حاله وكان المكان المستباح نفسه أصبح مغتربا عن قاطنه الأول؛ لأنه أصبح بحيازة من لا ينتمون إليه أصلاً. لم يعد بعض الناس كالسابق ولم يستطيعوا المقاومة، لم يجدوا نصيراً يساعدهم على منع هذا التغير، لذا بدوا ضعفاء يائسينفالموا إلى الغربية والاغتراب عن الناس، والاغتراب عن المكان الذي يعيشون فيه. سيطرت عليهم العزلة والوحدة، ولعلّ هذا عين ما يطلق عليه "فقدان السيطرة"؛ أي عدم شعور الفرد أن باستطاعته التأثير في المواقف الاجتماعية التي يتفاعل معها، ويعني أيضا عدم القدرة على التأثير في الحياة الإنسانية في خضمّ المستجدات، فيبدو غريباً عن مجتمعه وعن نفسه، فلا هو بالقادر على العودة إلى الماضي الذي بدأت تتغير ملامحه المادية، ولا هو بالقادر على التأقلم مع الجديد، لصعوبة استيعابه له من جهة، ولانشداده إلى الماضي وامتلائه بالقيم القديمة التي تراكت عبر العصور من جهة أخرى.

وينبغي الإشارة إلى أن اتساع الهوة بين المنشود والمتاح يفضي إلى الاغتراب؛ فما تملكه بعض الشخصيات من قدرات كانت إلى عهد قريب تحقق أهدافها وتكوّن لها منزلة اجتماعية — لم يعد مع الطفرة النفطية يكفي لتلبية احتياجاتها، بل يقف التشبّث بهذه القدرات القديمة حجر عثرة أمام تطورها ونموها. والسؤال الذي تثيره الروايات، من بين كثير من الأسئلة، هو فيما يتعلق بهذه المسألة: كيف يتمكن الأمي المتشبّث بعاداته وتقاليدته أن يقترب من المنشود الذي أتى به الجديد؟ لم تدرج بعض الشخصيات، كما هو الحال عند الجيل الجديد، في فهم المستورد والدخيل، لم تستطع إمكاناتها من تحقيق طموحاتها، فكيف يتعامل الأمي مع الكتاب والمذياع والسلاح ووسائل الحياة الجديدة... إن كل ذلك يؤدي إلى إخفاقات متتابعة تعمل على تدمير الإنسان ودفعه إلى السقوط. إن ما حدث بعد تفجر الثروة النفطية نقل الناس من حياة البداوة والبساطة إلى عصر التطور التكنولوجي والعلم والمعرفة. وقد استطاع بعض الناس من خلال أبنائهم

واحفادهم الناقل مع الجديد، ولكن شريحة اخرى هوت في حالات من التأمل والانعزال وانعدام القدرة والتوازن؛ فجاء اغترابها حادًا وسقوطها مدويًا.

إن ماترصده الروايات يلفت الانتباه إلى انقلاب الموازين وضعف المعايير في توجيه الناس وضبط سلوكهم؛ ويتضح من النصوص الطفرة الهائلة التي مر بها المجتمع النفطي، فبعد الحديث عن المفردات التكنولوجية الغربية المستهلكة التي تكشف عن مدى هامشية المجتمع العربي وسلبيته، تستعاد بعض مظاهر الماضي المتخلف، كما تشير النصوص إلى أن النفط لم يغيّر في البنى الفكرية، بل قدّم لنا شخصيات مترددة شاكّة مفعمة بالخوف من الآخر وادّعاء الازدراء به في آن معا.

أما الازدواجية تعني اقتران القيم المعنوية القديمة ومفردات الحضارة الحديثة/الجمع بين الماضي والحاضر/ ادّعاء المثل النبيلة والتدين واختراقها سلوكًا/ الهوة الثقافية الناجمة عن عدم التزامن بين الماديات والميتافيزيائيات/ التجاور المعادي... أن يعيش الإنسان مع الماضي والحاضر ويدمجهما دون أن يمتزجا، فهو تارة للقديم والمبادئ والأصالة، وتارة أخرى كأنه ابن الجديد وولد فيه، مما يخلق نوعًا من التناقض، إذ يتجاور السلبي والإيجابي وتعيش المفردات المفعمة بالمفارقات جنبًا إلى جنب. ولعلّ ما احتل مساحة لا بأس بها في النصوص التي بين أيدينا، فيما يتعلق بهذه المسألة، الأمكنة وأنماط الحياة ومجمل الأفكار. إنّ التطور الذي أصاب المنطقة لم يأت - كما تصوّره النصوص - تدريجياً يتوافق مع قوانين الطبيعة، وإنما كانت المقدمات سريعة، فجاءت النتائج مؤذية لكثير من الناس؛ إن التقدم المادي الذي استهلكه العربي لم يأت نتيجة جهده هو وإنما جاء نتيجة خبرات متراكمة مرّ بها الغرب.

يمكن القول إن الثورة النفطية أفرزت شرائح اجتماعية متمايضة أكثر من إفرازها طبقات اجتماعية مميزة. أفرزت في التركيبة الاجتماعية الجديدة الفلة التي تهيم: الشيوخ والسلطين، والمواطن الأصلي الذي شارك في الثروة وفق مقاييس قبلية، والمواطن عن طريق الجنسية، والوافد العربي والوافد الأجنبي. وكانت العلاقة بين هذه الشرائح علاقة تنافس لا علاقة صراع.

إن الروايات التي نوقشت تشي بان الناس يفتقرون إلى الوعي الطبقي العميق، وإذا كان ثمة صراع فإنه باهت لم يصل إلى حد الحتمية في انتصار طبقة على أخرى، لأنه أخفق في إحداث تغييرات اجتماعية حادة في البنى الثقافية وإنما اقتصر على المسائل المادية التي أدخلت إلى المجتمعات النفطية. ولا ينكر القارئ لهذه الروايات أن هناك كثيرا من مظاهر التكنولوجيا، وتحسين الظروف المادية للإنسان العربي، فضلا عن ازدهار العمران وشرق الطرق، واستيراد وسائل الاتصال الحديثة. ومع ذلك فإن هذه الروايات ترى أن الطبقة المفترقة إلى الوعي لم تمكن الإنسان العربي من استيعاب المفردات المادية، أو تغيير كثير من المستقرات السلبية، ولم تستطع أن تهز النظام القبلي الأبوي الذي يتحكم في حياة العرب على نحو يذكر. إن هؤلاء الكتاب يرون أن التعليم ونشر الوعي بين الناس هي الوسائل المثلى للحاق بعصر العلم والتكنولوجيا وأن المظاهر التكنولوجية مسّت الحياة العربية من الخارج، وجاء التقدم التكنولوجي أسرع من قدرة العربي على الوعي به.

لا يظهر وضع المرأة قبل النفط وبعده اختلافا كبيرا، والروايات في أغلبها تجمع على تردي وضع المرأة بعد النفط. تحدثت الروايات عن وضع المرأة وظلمها وضعفها قبل النفط، إلا أن الحديث عن جسدها لم يظهر بتلك الصورة التي ظهرت عند الحديث عن المرأة بعد النفط. مجموعة نماذج رأيتها - نماذج منقادة محاصرة مستسلمة لا تحاول حتى محاولة التحرر، ونماذج أخرى همها التحرر وفك القيود لكنها تعاقب على هذه المحاولات مثلما عوقبت المستسلمة المنقادة. وهناك نماذج أخرى فكّت القيد وانطلقت وحاولت التحرر من كلمة رجل، ولكنها سلكت طريقا خاطئا لهذا التحرر؛ فكان مصيرها الضياع والتهيه.

## الحواشي

- 1) محمد قطان ،الدراسات الاجتماعية في المجتمعات البدوية ، دار البلاد : 145
- 2) منيف ، الأخدود ، ط4 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، 1992 ، : 26
- 3) سهير عبد العزيز يوسف ، الاستمرار والتغير في البناء الاجتماعي في  
البادية العربية ، ط1 ، دار المعارف ، 1991 : 105 .
- 4) وليد حجار : السقوط إلى أعلى (دم،د.ن) ، 1973 : 47 .
- 5) نفسه : 33 .
- 6) نفسه : 48 .
- 7) محمد سلام جميعان ، قدح من نפט ، مركز الدراسات والترجمة ، عمان ،  
1987 : 9 .
- 8) نفسه : 134 .
- 9) نفسه : 120 .
- 10) نفسه : 108 ، وانظر صفحة 114 . 11) منيف : التيه ، ط4 ، المؤسسة العربية  
للدراسات والنشر ، 1992 : 14 .
- 12) سهير عبد العزيز : 105 .
- 13) التيه : 28 .
- 14) نفسه ، 29 .
- 15) عبد الحفيظ محمد شناق ، التحضر وتأثيره على القيم والتجاهات الدينية  
في مجتمع دولة الامارات العربية المتحدة مؤسسة دار الفكر الجديدة أبو ظبي : 127 .
- 16) التيه : 7 .
- 17) نفسه : 10 .
- 18) نفسه : 10 .
- 19) منيف ، الأخدود : 353 .
- 20) نفسه : 355 .
- 21) نفسه : 354 .
- 22) التيه : 13 .
- 23) التيه : 13 .

- 24) جميعان ، السابق : 62 ، وانظر 125
- 25) هاني الراهب ، رسمت خطا في الرمال ، الكنوز الأدبية ، بيروت ، ط 1 ، 1999 : 33 .
- 26) نفسه : 14 .
- 27) نفسه : 18 .
- 28) نفسه : 12 .
- 29) نفسه : 115 .
- 30) منيف ، تقاسيم الليل والنهار ، ط 4 المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، 1992 : 9 .
- 31) نفسه : 9 .
- 32) نفسه : 9 .
- 33) نفسه : 9 .
- 34) نفسه : 10 .
- 35) نفسه : 13 .
- 36) نقلا عن حلیم بركات ، المجتمع العربي في القرن العشرين ، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 1 ، 2000 : 531 .
- 37) منيف ، تقاسيم الليل والنهار : 15 .
- 38) نفسه : 18 .
- 39) نفسه : 30 .
- 40) نفسه : 60-69 .
- 41) نفسه : 274-281 .
- 42) نفسه : 257 .
- 43) نفسه : 309 .
- 44) نفسه : 309 .
- 45) نفسه : 280 .
- 46) نفسه : 283 - 285 .
- 47) الراهب : 17 - 18 .
- 48) نفسه : 41 - 42 .
- 49) نفسه : 43 .
- 50) نفسه : 43 .

- 51) نفسه : 14 .  
 52) الراهب : 15 .  
 53) نفسه : 15 .  
 54) نفسه : 16 .  
 55) نفسه : 20 - 21 .  
 56) نفسه : 19 .  
 57) نفسه : 120 .

58) انظر حول مسألة اللقاء الحضاري:

محمد البارودي. " جدلية الشرق والغرب في الرواية العربية "، م. الفكر، تونس، س3، ع29، 1983 ؛ وس4، ع29، 1984.

-طلال حرب. "البطل الرائي الشرقي والغرب"، م. الآداب، ع9، سبتمبر 1980.

-محمد كامل الخطيب. المغامرة المعقدة: مقدمة في تاريخ العلاقة بين المجتمع العربي والغرب كما يظهرها الفن الروائي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1976.

نبيل سليمان. "التعبير الروائي عن إشكالية اللقاء بالغرب الاشتراكي"، م. المعرفة، دمشق، س24، ع282، 1985.

-فخري صالح. "الرواية العربية والإفريقية: الالتقاء بالغرب... واكتشاف الهوية الثقافية"، م. الكاتب العربي، دمشق، ع6، 1983.

-شجاع مسلم العاني. الرواية العربية والحضارة الأوروبية، وزارة الثقافة والفنون، بغداد، 1979.

-سالم المعوش. صورة الغرب في الرواية العربية، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1998، وغيرها.

59) التلخيص: ويسمى أيضا الإجمال، وهو سرد أيام عديدة أو شهور أو سنوات من حياة الشخصية دونما تفصيل للأفعال أو الأقوال وذلك في بضعة أسطر أو فقرات قليلة، انظر: سمير المرزوقي وجميل شاكر، مدخل إلى نظرية القصة تحليلا وتطبيقا، دار الشؤون الثقافية العامة (أفاق عربية)، بغداد، والدار التونسية للنشر، تونس، 1986: 86، ولا يختلف مصطلح الخلاصة عن النص الملخص أو التلخيص حيث يتم سرد وقائع أو أحداث يفترض أنها جرت في مدة زمنية طويلة \_ من خلال الاختزال بحيث تكون المساحة النصية قصيرة، انظر: حميد



لحمداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط 2، 1993: 76، وتزفتيان تودوروف، الشعرية، ت: شكري المبخوت وزجاء بن سلامة، دار توبقال، المغرب، 1987: 49. أما الحذف ويسمى أيضا الثغرة أو الإسقاط أو الإضمار أو القطع، فيقصد به المرور على فترات زمنية ممتدة أو قصيرة دون سرد ما وقع فيها من أحداث وقد يلجأ السارد عند تجاوز مرحلة من المراحل إلى الإشارة إلى الزمن أو المدة كأن يقال على سبيل المثال: ومضت خمس سنوات، أو: وبعد إحدى عشرة سنة.. وهكذا، انظر: تودوروف، الشعرية: 49، وصلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، آب، 1997: 304، وسيزا القاسم، بناء الرواية، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط 1، 1985: 89؛ ويعرف المشهد عادة بأنه الخطاب الذي يتساوى فيه \_ نسبيا \_ حجم النص مع زمن المتن أو الحكاية، ويأتي على شكل سرد تتوالى فيه الأفعال بحيث يشعر القارئ بتطور الحدث وتناميه، ويشعر أن النص غطى مدة زمنية مناسبة. وقد يأخذ المشهد شكل الحوار وهذا الشكل هو الغالب على المشاهد حيث تتساوى أحيانا مساحة النص مع زمن الحكاية؛ ولذلك عرف بعضهم المشهد بأنه المقطع الحوارى الذي يأتي فى تضاعيف السرد، فالمشهد يمثل بشكل عام اللحظة التي يكاد يتطابق فيها زمن السرد بزمن القصة من حيث مدة الاستغراق، مع ملاحظة الصمت أو التكرار، انظر: حميد لحمداني: 78 ومدخل إلى نظرية القصة: 90 وعالم الرواية: 52؛ وتودوروف، الشعرية: 49.

(60) محمود تيمور، شمروخ، دار الهلال، القاهرة، 1958: 113.

(61) نفسه: 181.

- 62) نفسه: 147.
- 63) نفسه: 37.
- 64) نفسه: 38.
- 65) نفسه: 97.
- 66) التيه: 70.
- 67) سعد عبد الحسين العتابي ، الملحمية في الرواية العربية المعاصرة، ط ١ دار الشؤون الثقافية العامة بغداد 2001: 91 ، وانظر: يوسف ضمرة، " التقاليد الملحمية في رواية مدن الملح "، م. الموقف الأدبي، ع191 - 192، س16، دمشق، آذار ونيسان، 1987 ؛ و م. أفكار، ع92، عمان، تموز - آب، 1989.
- 68) التيه: 46.
- 69) نفسه: 89.
- 70) نفسه: 30.
- 71) نفسه: 31.
- 72) نفسه: 45.
- 73) نفسه: 104-105.
- 74) محمد الشوابكة، "دلالة المكان في مدن الملح لعبد الرحمن منيف"، أبحاث اليرموك، م9، ع2، 1991: 21.
- 75) نفسه، ص 31، وانظر ما نقله عن اعتدال عثمان مقالة في الشعر ومتغيرات المرحلة، لعناد غزوان وآخرين، دار الشؤون الثقافية العامة، "آفاق عربية"، بغداد، ط ١، 1986: 51.
- 76) التيه: 185.
- 77) التيه: 85.
- 78) نفسه، ص 102.
- 79) عبد الرحمن منيف، الكاتب والمنفى - هموم وآفاق الرواية العربية، دار الفكر الجديد، 1992: 6.
- 80) العتابي، السابق: 117.
- 81) منيف، التيه: 106.
- 82) العتابي، السابق: 91.

- (83) نفسه: ٩١.
- (84) منيف، التيه: ٤٧٩.
- (85) نفسه: ٤٧٨.
- (86) نفسه: ٤٧٩.
- (87) انظر التيه: ٥٤٤، ٥٤١، ٥٤٥، ٥٧٩.
- (88) العنابي، السابق: ٩٣.
- (89) انظر جسر الشيطان، عبد الحميد جودت السحار، القاهرة، مكتبة مصر (د.ت): 58، وانظر أيضا: 7، 17، 113-114، 141...
- (90) منيف، الكاتب والمنفى: ٢٢٣.
- (91) نفسه: ١٩٧.
- (92) أحمد جاسم الحميدي، البطل الملحفي في روايات عبد الرحمن منيف، ج1، الأهالي للطباعة والنشر، دمشق: 87.
- (93) التيه: 58.
- (94) نفسه: 59.
- (95) نفسه: 61.
- (96) الحميدي، السابق: 88.
- (97) التيه: 61.
- (98) نفسه: 62.
- (99) الحميدي: 89.
- (100) التيه: 100.
- (101) ياسين النصير، إشكالية المكان في النص الأدبي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1986 : 21.
- (102) نفسه: 62.
- (103) نفسه: 111.
- (104) نفسه: 122.
- (105) الحميدي: 111.
- (106) الحلول هو " اتحاد الجسمين بحيث تكون الإشارة إلى أحدهما إشارة إلى الآخر، كحلول ماء الورد في الورد، والحلول الحيزي كحلول الأجسام في الأحياء، أي الأمكنة"، انظر:

محمد الشوابكة، "الإنسان والطبيعة في رواية "النهايات" لعبد الرحمن منيف، جدلية العلاقة وشعرية الوصف" مجلة المنارة، المجلد 4، العدد3، 1999: 342؛ نقلا عن محمد القاضي، الأرض في شعر المقاومة الفلسطينية، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، 1982: 121.

107) جبرا إبراهيم جبرا، "الحبّ والموت والطبيعة في النهايات"، مقالة في ينابيع الرؤيا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1979: 39.

108) الشوابكة، دلالة المكان : 35، ويقول عبد الإله الرحيل: " ومنيف ليس ضد العلم ولكنه ضد ( الطريقة) التي تسلل بها هذا العلم إلى وادي العيون وبشره، فاستهلك إنسانيتهم وأشاع التفرقة بينهم..."، انظر: " قراء في مدن الملح"، مجلة المعرفة، عدد275، س23، دمشق، كانون الثاني، 1985: 174.

109) التيه: 85.

110) نفسه: 89.

111) نفسه: 87.

112) نفسه: 87.

113) نفسه: 89.

114) نفسه: 48.

115) نفسه: 48.

116) نفسه: 129.

117) نفسه: 130.

118) نفسه: 135.

119) يوسف ضمرة، التقاليد الملحمية في رواية مدن الملح ، الموقف الأدبي، ع191-192 ، دمشق، آذار ونيسان ، 1987: 34.

120) قدح من نפט: 130.

121) نفسه: 49، 63.

122) نفسه: 51.

123) نفسه: 124.

124) نفسه: 110.

125) نفسه: 101، 102.

- (126) نفسه: 106.
- (127) الراهب: 179.
- (128) أحمد الخشاب، التفكير الاجتماعي دراسة تكاملية للنظرية الاجتماعية، دار النهضة العربية، بيروت، 1981: 70.
- (129) منيف، التيه: ٧.
- (130) نفسه: ٩.
- (131) محمد شوابكة، دلالة المكان في مدن الملح لعبد الرحمن منيف: ٢٩.
- (132) نفسه: ٣٠.
- (133) السيد علي شتا، الاغتراب من منظور علم الاجتماع، عالم الكتب(بيروت)، 1984: 23.
- (134) حسن السيد، الاغتراب في الدراما المصرية المعاصرة بين النظرية والتطبيق (1960-1969)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1986: 11، وانظر يحيى العبد الله، الاغتراب، دراسة تحليلية لشخصيات الطاهر بن جلون الروائية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2005: 22-25.
- (135) محمد الشوابكة، " الغربية والاغتراب في شعر ابن دراج الأندلسي"، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، المجلد الرابع، العدد الثاني، 1989: 170؛ وانظر قيس النوري، " الاغتراب - اصطلاحا ومفهوما وواقعا"، مجلة عالم الفكر، وزارة الإعلام، الكويت، المجلد العاشر، 1979، ع1: 18.
- (136) التيه: ٧٧ .
- (137) السيد علي شتا، مرجع سابق: 206.
- (138) قيس النوري مرجع سابق: 16.
- (139) السيد علي شتا: 220.
- (140) منيف، الأخدود: 184.
- (141) نفسه: ١٨٥.
- (142) نفسه: ١٩٠.
- (143) محمد الشوابكة، "اللفظ والتحول الاجتماعي دراسة في "مدن الملح" لعبد الرحمن منيف"، مجلة دراسات، مج ١٩٠، ع١، 1992: 288.
- (144) نفسه: ٢٨٩.
- (145) نفسه: ٢٨٩.

- (146) الأخدود: ٣٥٩.
- (147) نفسه: ٣٦٩.
- (148) نفسه: ٣٨٩.
- (149) الاغتراب في الدراما المصرية (مرجع سبق ذكره): 12.
- (150) انظر حول ذلك، السيد علي شتا: 216، 340؛ وقيس النوري: 15، وتعد هذه الحالة عند بعض الباحثين مظهرا من مظاهر تحلل المعايير وانقلابها، أو ما اصطلح عليه بـ "اللامعيارية"، انظر قيس النوري: 22.
- (151) الأخدود: 393.
- (152) انظر، محمد الشوابكة: "الغربة والاغتراب في شعر ابن دراج": 160، وحول معنى الشعور بالعزلة والاغتراب عن النفس انظر: "الاغتراب والثورة في الحياة العربية"، لحليم بركات، مواقف، ع5، 1969: 22.
- (153) النفط والتحول الاجتماعي: ٢٩٠، وانظر الأخدود: ٣٩٤ .
- (154) نفسه: ٢٩٠.
- (155) نفسه: ٢٩٠.
- (156) الأخدود: ٣٧٢.
- (157) نفسه: ٣٧٨ .
- (158) نفسه: ٣٧٨.
- (159) نفسه: ٣٨٠.
- (160) النفط والتحول الاجتماعي: ٢٩٣.
- (161) الراهب: 12.
- (162) نفسه: 45-46.
- (163) نفسه: 46.
- (164) نفسه: 56.
- (165) الراهب: 80.
- (166) نفسه: 131.
- (167) جميعان: 33.
- (168) نفسه: 22.
- (169) النفط والتغير الاجتماعي: 313، وانظر: بادية الظلمات: 283-285.

- (170) الراهب: 10-12.
- (171) نفسه: 62.
- (172) نفسه: 66.
- (173) نفسه: 125.
- (174) انظر مشاهد القتل: 146-147، والتناقض بين الدين وأفعال الحاكم: 140، حيث نرى لدى الحاكم مائة مونيكا وديونيكا والبلاد كلها ممنوع فيها العشق والغرام ومبتلاة بالمطوعين، 142، 146.
- (175) الراهب: 88.
- (176) نفسه: 88.
- (177) نفسه: 94.
- (178) نفسه: 57.
- (179) التيه: 386.
- (180) الأخدود: 22.
- (181) الأخدود: 102.
- (182) نفسه: 365.
- (183) نفسه: 126-127.
- (184) نفسه: 457.
- (185) السقوط إلى أعلى، (دن، د.م) 1973: 33.
- (186) نفسه: 47.
- (187) قيس النوري: 14.
- (188) حجار: 40.
- (189) نفسه: 175.
- (190) نفسه: 354.
- (191) نفسه: 168.
- (192) نفسه: 168.
- (193) نفسه: 169.
- (194) نفسه: 46.
- (195) نفسه: 47.

- 196) نفسه: 53.
- 197) نفسه: 33-34.
- 198) نفسه: 61.
- 199) محمد الشوابكة، النفط والتحول الاجتماعي: ٢٩٥.
- 200) منيف، تقاسيم الليل والنهار: ٩.
- 201) نفسه: ٩.
- 202) نفسه: ١٨.
- 203) انظر تقاسيم الليل والنهار: ١٩.
- 204) منيف، بادية الظلمات: ٥٧.
- 205) نفسه: ٨٢.
- 206) 8- تقاسيم الليل والنهار: 36.
- 207) منيف، تقاسيم الليل والنهار: ١١٣.
- 208) منيف، التيه: ٨٥.
- 209) منيف، التيه: ٨٥.
- 210) وليد حجار،: ٣٣.
- 211) نفسه: 33.
- 212) منيف، تقاسيم الليل والنهار: ١١٣.
- 213) حجار، السقوط إلى أعلى: ٣٣.
- 214) نفسه: ٣٣.
- 215) نفسه: ٣٦.
- 216) منيف، الأخدود: ٦٨.
- 217) نفسه: ٦٨.
- 218) نفسه: ٧٠.
- 219) حجار،: ١٦٨.
- 220) نفسه: ١٦٨.
- 221) نفسه: ١٦٩.
- 222) نفسه: ١٦٩.
- 223) منيف، تقاسيم الليل والنهار: ١٩.



- (224) حجار، نفسه: ٤٩.
- (225) نفسه: ٤٩.
- (226) نفسه: ٥٠.
- (227) نفسه: ٥٠.
- (228) منيف، تقاسيم الليل والنهار: ٥٩.
- (229) منار فتح الباب، الخطاب الروائي عند غسان كنفاني، دراسة اسلوبية، ط١، ٢٠٠٣: ٢٧٦.
- (230) ايلاس خوري، الذاكرة المفقودة دراسات نقدية، مؤسسة الأبحاث العربية، ط١، ١٩٨٢: ٩٤.
- (231) صلاح صالح، الرواية العربية والصحراء، سوريا، ١٩٩٦: 59.
- (232) منيف، الأخدود: ٢٢.
- (233) نفسه: ٢٢.
- (234) الراهب، هاني، رسمت خطا في الرمال، ط١، بيروت دار الكنوز الأدبية، ١٩٩٩: ٨٠.
- (235) منيف، الأخدود: ٩٠.
- (236) نفسه: ١١١.
- (237) نفسه: ١١١.
- (238) الشوابكة، النفط والتحول الاجتماعي: ٣١٠.
- (239) منيف، التيه: ١٣-١٧.
- (240) نفسه: ١٣١.
- (241) نفسه: ١٣٣.
- (242) الشوابكة، السابق: ٢٩٧.
- (243) نفسه: ٢٩٦.
- (244) منيف، التيه: ٥٤٥.
- (245) الشوابكة، السابق: ٢٩٧.
- (246) نفسه: ٢٩٧.
- (247) منيف، التيه: ٥٥٢.
- (248) غسان كنفاني، رجال في الشمس، ط٥، بيروت مؤسسة الأبحاث العربية، ٢٠٠٢: 78.
- (249) صلاح صالح، نفسه: ٦١.

- (250) الشوايكة، النفط والتحول الاجتماعي: ٣٠٠.
- (251) عبد الإله الرحيل، "قراءة في مدن الملح"، مجلة المعرفة، 275/23 (1985): 175 .
- (252) الشوايكة ، النفط والتحول الاجتماعي: ٣٠٨.
- (253) منيف ، تقاسيم الليل والنهار: ٦٧.
- (254) منيف ، التيه: ١١٩.
- (255) نفسه: ١٢٨.
- (256) منيف ، بادية الظلمات: ٩٥.
- (257) منيف ، الأخدود: ٧٢.
- (258) نفسه: ٧٣.
- (259) نفسه: ٧٣.
- (260) نفسه: ٧٤.
- (261) منيف، بادية الظلمات: ٩٨.
- (262) منيف، الأخدود: ٨٠.
- (263) منيف، بادية الظلمات: ٩٩.
- (264) نفسه: ٩٩.
- (265) منيف ، الأخدود: ٨٥.
- (266) منيف ، تقاسيم الليل والنهار: 50.
- (267) السقوط إلى أعلى: 157.
- (268) الراهب: 69.
- (269) نوال السعداوي ، الحب في زمن النفط ، القاهرة ، 1993 ، ط1: 6.
- (270) نفسه: 13.
- (271) نفسه: 10.
- (272) نفسه: 18.
- (273) نفسه: 22.
- (274) نفسه: 32.
- (275) نفسه: 33.
- (276) نفسه: 33.

- 277) نفسه: 51.
- 278) مجموعة من الكتاب، المرأة العربية بين الواقع وتطلعات التحرر، ط1، بيروت 1999:
- 208 نقلا عن سلوى الخماش، المرأة العربية والمجتمع التقليدي المتخلف، بيروت، دار الحميمة، 1973: المقدمة.
- 279) نفسه: 208.
- 280) سمير عبده، المرأة العربية بين التخلف والتحرر، ط1، دار الافق. الجديدة، بيروت، 1980: 104 .
- 281) منيف، الأخدود: 85.
- 282) نفسه: 84.
- 283) منيف، المنبت: 115.
- 284) نفسه: 146.
- 285) منيف، الأخدود: 35.
- 286) نفسه: 47.
- 287) نفسه: 48.
- 288) نفسه: 49.
- 289) نفسه: 49.
- 290) نفسه: 50.
- 291) نفسه: 58.
- 292) منيف، المنبت: 47.
- 293) الراهب، السابق: 69.
- 294) نفسه: 69.
- 295) نفسه: 69.
- 296) السعداوي، السابق: 83.
- 297) نفسه: 83.
- 298) حجار، السابق: 55.
- 299) الراهب، السابق: 7.
- 300) حجار، السابق: 15.

## المراجع

- البارودي محمد. 1984، جدلية الشرق والغرب في الرواية العربية، مجلة الفكر، تونس، س3، ع29، 1983؛ وس4، ع29، ص3،4
- بركات، حليم. 1969، الاغتراب والثورة في الحياة العربية، مواقف، ع5، ص22.
- بركات، حليم. 2000، المجتمع العربي في القرن العشرين، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، .
- تودوروف، تزفتيان. 1987، الشعرية، ت: شكري المبخوت ورجاء بن سلامة، دار توبقال، المغرب.
- تيمور، محمود. 1958، شمروخ، دار الهلال، القاهرة.
- جبرا، جبرا ابراهيم. 1978، الحبّ والموت والطبيعة في النهايات، مقالة في ينابيع الرؤيا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ص39 .
- جميعان، محمد سلام. 1987، قدح من نפט، مركز الدراسات والترجمة، عمان .
- حجار، وليد. 1973، السقوط إلى أعلى، (د.ن).
- حرب، طلال. 1980، البطل الرائي الشرقي والغريم. الآداب، ع9، ص32.
- الحميدي، أحمد جاسم. البطل الملحمي في روايات عبد الرحمن منيف، ج1، الأهالي للطباعة والنشر، دمشق.
- الخشاب، أحمد. التفكير الاجتماعي دراسة تكاملية للنظرية، دار النهضة .
- الخطيب، محمد كامل. 1976، المغامرة المعقدة: مقدمة في تاريخ العلاقة بين المجتمع العربي والغرب كما يظهرها الفن الروائي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق.
- الخمّاش سلوى. 1973، المرأة العربية والمجتمع التقليدي المتخلف، بيروت، دار الحميمة، .
- خوري، الياس. 1982، الذاكرة المفقودة دراسات نقدية، مؤسسة الأبحاث العربية، ط1.
- الراهب هاني. 1999، رسمت خطأ في الرمال، الكنوز الأدبية، بيروت، ط1 .

- الرحيل عبد الإله. 1985، قراء في مدن الملح، مجلة المعرفة، 275، 23، ص 175.
- كانون الثاني، ص 23، 275، 251، 175.
- السحار، (د.ت)، عبد الحميد جودت. جسر الشيطان، القاهرة، مكتبة مصر.
- السعداوي، نوال. 1993، الحب في زمن النفط، القاهرة، ط1.
- سليمان، نبيل. 1985، التعبير الروائي عن إشكالية اللقاء بالغرب الاشتراكي م. المعرفة، دمشق، ع 282، ص 24.
- السيد، حسن. 1986، الاغتراب في الدراما المصرية المعاصرة بين النظرية والتطبيق (1960-1969)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- شتا السيد علي. الاغتراب من منظور علم الاجتماع، عالم الكتب (بيروت)، 1984.
- شناق، عبد الحفيظ "التحضر وتأثيره على القيم والاتجاهات الدينية"، مؤسسة دار الفكر.
- الشوابكة، محمد. "الإنسان والطبيعة في رواية "النهايات" لعبد الرحمن منيف، جدلية العلاقة وشعرية الوصف" مجلة المنارة، المجلد 4، العدد 3، 1999.
- الشوابكة، محمد. "دلالة المكان في مدن الملح لعبد الرحمن منيف"، أبحاث اليرموك، م 9، ع 2، 1991: 21، 29، 31، 35.
- الشوابكة، محمد. "الغربة والاغتراب في شعر ابن دراج الأندلسي"، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، المجلد الرابع، العدد الثاني، 1989، ص 160، 18، 170.
- الشوابكة، محمد. "النفط والتحول الاجتماعي دراسة في "مدن الملح" لعبد الرحمن منيف"، مجلة دراسات، مج 190، ع 1992، ص 290، 295، 300، 308، 310.
- صالح، صلاح، الرواية العربية والصحراء، سوريا، 1996.
- صالح، فخري. "الرواية العربية والإفريقية: الالتقاء بالغرب... واكتشاف الهوية الثقافية"، م. الكاتب العربي، دمشق، ع 6، 1983.

- ضمرة، يوسف. "التقاليد الملحمية في رواية مدن الملح"، م. الموقف الأدبي، 191ع - 192، س16، دمشق، آذار ونيسان، 1987؛ و م. أفكار، ع92، عمان، تموز - آب، 1989، ص 34،
- العاني، شجاع مسلم. الرواية العربية والحضارة الأوروبية، وزارة الثقافة والفنون، بغداد، 1979.
- العبد الله، يحيى. الاغتراب، دراسة تحليلية لشخصيات الطاهر بن جلون الروائية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2005.
- عبد، سمير، المرأة العربية بين التخلف والتحرر، ط1، دارالأفق. الجديدة، بيروت، 1980. - العتابي، سعد عبد الحسين. الملحمية في الرواية العربية المعاصرة، ط1 دار الشؤون الثقافية العامة بغداد 2001، 91.
- عثمان، اعتدال. مقالة في الشعر ومتغيرات المرحلة، لعناد غزوان وآخرين، دار الشؤون الثقافية العامة، "أفاق عربية"، بغداد، ط1، 1986.
- فتح الباب، منار، الخطاب الروائي عند غسان كنعاني، دراسة أسلوبية، ط1، 2003.
- فضل، صلاح. بلاغة الخطاب وعلم النص، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، آب، 1997.
- القاسم، سيزا. بناء الرواية، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1985.
- القاضي، محمد. الأرض في شعر المقاومة الفلسطينية، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، 1982.
- قطان، محمد. الدراسات الاجتماعية في المجتمعات البدوية، دار البلاد.
- غسان كنفاني، رجال في الشمس، ط5، بيروت مؤسسة الأبحاث العربية، 2002.
- لحمداني، حميد. بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط 2، 1993.

المرزوقي، سمير و شاكرا، جميل. مدخل إلى نظرية القصة تحليلاً وتطبيقاً، دار الشؤون الثقافية العامة ( آفاق عربية )، بغداد، والدار التونسية للنشر، تونس، 1986.

المعوش ، سالم. صورة الغرب في الرواية العربية، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1998، وغيرها.

منيف، عبد الرحمن. 1992، الكاتب والمنفى - هموم وآفاق الرواية العربية، دار الفكر الجديد، .

منيف، عبد الرحمن. 1992، التيه، ط4، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،

منيف، عبد الرحمن. 1992، الأخدود، ط4، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، .

منيف، عبد الرحمن. 1992، تقاسيم الليل والنهار، ط4، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،

منيف، عبد الرحمن. 1992، المنبت ، ط4 المؤسسة العربية للدراسات والنشر

منيف، عبد الرحمن، 1992. بادية الظلمات، ط4 المؤسسة العربية للدراسات والنشر

النصير، ياسين ، 1986. إشكالية المكان في النص الأدبي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1.

النوري ، قيس، 1979، الاغتراب - اصطلاحا ومفهوما وواقعا"، مجلة عالم الفكر، وزارة الإعلام، الكويت، المجلد العاشر، ع1، ص 16 ، 18،

يوسف، سهير عبد العزيز. 1991، الاستمرار والتغير في البناء الاجتماعي في البادية العربية ، ط1 ، دار المعارف .